



دكتور ابراهيم انيس

# الدرجات العربية

الناشر: دار الفكر العربي



اهداءات ١٩٩٩

١/ محمود محمد علي العيسوي

الإسكندرية

# اللُّجَّاتُ الْعَرَبِيَّة

تأليف

دكتور إبراهيم أنيس

B. A. و PH. D. (من جامعة لندن)  
أستاذ مساعد بكلية دار العلوم

الناشر

دار الفكر العربي

---

طبعة الرسالة



# مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على  
أشرف المرسلين و بعد :

فقد ترددت زمنا غير قصير قبل أن أقدم على نشر هذا الكتاب الذي  
يعرض للهجات العربية القديمة ، لأن البحث في مثل هذا قد يكون من عمل  
الهيئات العلمية ، ولا يقوم به فرد وحده . وذلك لتشعب الموضوع ، ووعورة  
الطريق إليه ، وما يحتاج من بحوث مستفيضة قد تنفذ أعمار الأفراد دون أن  
تكمل ، أو يكشف عن كل غوامضها وأسرارها .

ولكني حين رأيت انصراف أهل العلم في مصر عن هذه الناحية من  
البحث اللغوي ، واكتفائهم بتزديد بعض الروايات الشائعة في ثنايا كتب  
التاريخ والأدب ، دون فهم لها ، أو نظرها ، أو عناية بعرضها عرضا علميا  
صحيحا مؤسسا على أحدث النظريات التي قررها المحدثون في دراسة اللهجات  
قديمها وحديثها ، أقول حين رأيت هذا أقدمت على نشر كتاب به أستحث  
العلم على العناية بمثل هذه الدراسة ، راجيا ألا يمر زمن طويل قبل أن ترى  
بحوثا جليلة تكشف لنا عن كل أسرار اللهجات العربية .

وتعد دراسة اللهجات من أحدث الاتجاهات في البحوث اللغوية . فلقد  
نمت هذه الدراسة بالجامعات الأوروبية خلال القرنين التاسع عشر والعشرين ،  
حتى أصبحت الآن عنصرا هاما بين الدراسات اللغوية الحديثة ، وأصبحت لها

في بعض الجامعات الراقية فروع خاصة بدراستها ، تعنى بشرحها ، وتحليل خصائصها ، وتسجيل نماذج منها تسجيلاً صوتياً يبقى على الزمن .

وقد اعتمدت في هذا الكتاب على المشهور من روايات الأقدمين التي جاءتنا مبتورة حيناً ، ومسوخة حيناً آخر ، لم تراع الدقة في نقلها ، بل لم تنسب في غالب الأحيان إلى قبائلها أو بيئاتها . ولست أعرف بين علماء العربية على كثرتهم ، وكثرة ما كتبوه في كل فرع من فروع اللغة ، من عنى باللهجات فأفرد لها مؤلفاً مستقلاً يجمع بشتاتها ، ويشرح غامضها ، وإنما هي روايات متناثرة نجدها في بطون كتب الأدب واللغة والتاريخ .

وقد ظلت الحال هكذا حتى دوت صيحة للمرحوم جفنى ناصف بك ، في رسالته الصغيرة التي سماها : « مميزات لغات العرب » ، والتي ألقاها في مؤتمر المستشرقين الذي انعقد بمدينة فيينا في أوائل سنة ١٣٠٤ هجرية ، فكانت الصيحة الأولى ؛ ولكنها لم تحفز لهم ، ولم تسمع المتصامتين عن كل بحث جديد في اللغة . فما هو ذا قد مضى على نشرها نحو ستين عاماً ، دون أن نسمع لعالم آخر صوتاً ، أو نرى له إنتاجاً في هذا الشأن الجليل .

وقد كانت هذه الرسالة الصغيرة عمادنا في كثير مما روينا هنا ، بعد عرضه عرضاً علمياً مؤسساً على ما تقرره النظريات الحديثة في دراسة اللهجات . ولعل صيحتي لا تذهب أيضاً هباء ، ولعل جامعاتنا ومناهدنا العلمية تهني فيما بعد بهذه الدراسة الجليلة الشأن .

وستظل آراؤنا في اللهجات القديمة مجال الجدل والنقد ، وأحكامنا عليها أقرب إلى الترجيح منها إلى اليقين ، ما لم تؤسس على أسس علمية صحيحة .

وما لم تتبع الطريق المستقيم في دراستها . إذ لا بد لدراسة اللهجات العربية القديمة من الاعتماد على أسس ثلاثة :

أولها : وأهمها دراسة اللهجات العربية الحديثة دراسة مستفيضة في كل اللهجات العربية . وليس هذا بالأمر الهين ؛ بل ليس هذا من عمل فرد واحد ، وإنما هو من عمل الهيئات والجماعات ، لأنه يتطلب السفر إلى تلك اللهجات ، والإقامة فيها زمنا كافيا لتعرف خصائصها ، وما امتازت به . فهناك لهجات مصرية ، وأخرى عراقية ، وثالثة شامية ، ورابعة مغربية ، وأخيرا لهجة بلاد الجزيرة في عصرنا الحالي . وفي كل بيئة من هذه اللهجات لهجات حديثة يتكلم بها الناس ، وهي تشترك في بعض الصفات ، ولكنها تختلف في أمور هامة تميز لهجة كل بيئة عن الأخرى ، حتى في قراءتهم القرآن الكريم قد نلاحظ بعض الفروق الصوتية التي تميز المصري من الشامي ، والشامي من العراقي وهكذا .

وربما كان السر في تباين هذه اللهجات الحديثة أنها : أولا انحدرت من لهجات عربية قديمة متباينة . فلم تكن القبائل التي نزحت إلى هذه اللهجات ذات لهجة واحدة ، بل لقد وفدت إليها في عهود الغزو الإسلامي وبعده ، ومعها لهجاتها المختلفة ، وأقامت بها وكل منها يحتفظ بخصائصه ومميزاته في لهجات التخاطب التي تأثر بها أهل البلاد المفتوحة ، وبدأوا يحذون حذوها في لهجات كلامهم وفي تخاطبهم .. هذا رغم أن تلك القبائل قد احتفظت جميعها باللغة النموذجية ، لغة الأدب والدين التي نزل بها القرآن الكريم . فكانوا بها يكتبون ويقرأون ، وينظمون الشعر ويخطبون . فإذا خلوا إلى أنفسهم ، أو عن لهم من أمور حياتهم ما ليس بذي بال ، عبروا عنه بلهجتهم الخاصة ،

دون حرج أو تردد . فسلامهم في حياتهم العادية كان يخالف إلى حد كبير لغة الكتابة والأدب التي كانوا يلجأون إليها في المجال الجدى من القول .

وتلك اللهجات المتباينة التي وفدت من شبه الجزيرة قد غزت بيئات معمورة ، يتكلم أهلها لغات غير عربية ، منها القبطى والرومانى والفارسى والآرامى والبربرى وغير ذلك من لغات كانت شائعة في البيئات التي تناوأتها الفتوحات الإسلامية . وهنا كان لابد من صراع بين اللهجات الغازية واللهجات المغزوة أدى في معظم الحالات إلى انزواء اللهجات المغزوة ، أو القضاء عليها قضاء تاما . ولكنها لم تنزو ، أو لم يقض عليها إلا بعد أن تركت بعض الآثار في اللهجات الغازية من الناحية الصوتية على الأقل . فتركت القبطية قبل انزوائها بعض الآثار الصوتية في السنة المصريين حين تكلموا باللهجات العربية . وإذا علمنا أن القبطية ظلت يتكلم بها في بعض النواحي المصرية حتى القرن السابع عشر<sup>(١)</sup> ، استطعنا أن ندرك إلى أى مدى يمكن أن تكون لهجاتنا الحديثة قد تأثرت ببعض الآثار القبطية من الناحية الصوتية .

وقد حدث ما يشبه هذا في البيئة العراقية والشامية والمغربية وهكذا . وإذا أضيف إلى كل هذا أن اللهجات العربية الحديثة قد تطورت في بيئاتها المختلفة تطورات مستقلة ، لما أحاط بها من ظروف اجتماعية مختلفة في كل بيئة من تلك البيئات ، ولما ظرأ عليها بعد الفتح العربى من ظروف سياسية اختلفت أيضا في تلك البيئات ، فهناك آثار فارسية ، وأخرى تركية ، وثالثة أوروبية (فرنسية وإيطالية بل وإنجليزية أيضا) ، إذا تذكرنا كل هذا عرفنا لمساذا



اختلفت اللهجات العربية الحديثة في يثقاتها ، ورأينا هذا الاختلاف أمرا طبيعيا .

ومع هذا فقد احتفظت هذه اللهجات الحديثة ببعض الآثار القديمة التي يمكن أحيانا إرجاعها بسهولة إلى لهجات عربية قديمة ، وأحيانا يصعب هذا إلا بعد بحث دقيق ، ودراسة عميقة .

فمن الممكن مثلا أن يعزى النطق الخاص بالقاف في نواحي بنى سويف والفيوم وبعض مديرية الجيزة وأهل أبيار ورشيد وضواحيها والمحلة الكبرى والبرلس وبلبيس ، لهجة في قرش .

ومن الممكن أيضا أن تنسب إبدال الهمزة عينا بين سكان البوادي المصرية ، إلى لهجة تميم .

ومن الممكن أن تنسب ما نسمعه الآن من بعض أهل الشام والعراق حين يقفون على التاء المربوطة « بالتاء » إلى إحدى اللهجات القديمة التي روى عنها مثل هذه الظاهرة .

ومن الممكن أن نعزو كسر حرف المضارعة ذلك الأمر الشائع في معظم اللهجات المصرية ، إلى قبائل مثل بهراء من قضاة .

ومن الممكن أن تنسب الصيغة العامية « مديون » ، إلى لهجة تميم التي روى عنها مثل هذا .

ومن الممكن أن نعزو ميلنا إلى التسهيل في الهمزة ، إلى قبائل حجازية .

ومن الممكن أن تنسب ما هو معروف عن نواحي المحلة الكبرى وما حولها وجزيرة بنى نصر وأبيار وكثير من مديرتى البحيرة وبنى سويف من ميلهم

إلى قطع أواخر الكلمات حين الوقف ، إلى لهجة طيء التي عرفت بهذا .  
ومن الممكن أن تنسب الأمانة المشهورة في كثير من نواحي الريف  
المصرى ، إلى قبائل مثل تميم وأسد .

فنحن نرى من هذا أن كثيرا من الصفات التي نلاحظها الآن في لهجاتنا  
الحديثة يمكن بعد الدراسة والتحصيل إرجاعها إلى لهجات عربية قديمة .  
ولكامل الكشف عن كل أسرار اللهجات الحديثة ، لا بد من دراستها  
دراسة علمية صحيحة ، وتسجيل نماذج منها تسجيلا صوتيا ، لعرف أولا ما تنصف  
به كل لهجة من خصائص . هذا ودراستنا لها يجب أن تبدأ وصفية ، نشرحها  
ونسجلها ونحلل أصواتها وكلماتها ، دون التعرض في البدء إلى أي نوع من  
المقارنات ، أو الحكم على أية صلة لها ب لهجة قديمة . فإذا فرغنا من الدراسة  
الوصفية التحليلية لكل لهجة من اللهجات الحديثة نكون قد خدمنا أغراضنا  
جلية : منها تسجيل لهجاتنا التي تكون مرحلة تاريخية من حياتنا الاجتماعية  
ومنها إشباع رغبة العلماء منا في الدراسات الأكاديمية البحتة للهجات الحديثة ،  
ثم بعد هذا وفوق هذا تصبح تلك الدراسة نواة أو مادة نستغلها في دراسة  
اللهجات العربية القديمة .

ثانيها : دراسة القراءات القرآنية دراسة واسعة غير مكثفين فيها بما روى  
في بطون الكتب ؛ بل يجب أن تطبق تلك الروايات على ما نسمعه فعلا من  
أفواه المجيدين للقراءات في البيئات العربية المختلفة ، مستخدمين في دراستنا  
النظريات الصوتية الحديثة ، والمقاييس والآلات التي تستخدم في معامل  
علم الأصوات .

هذا إلى دراسة القراء وما روى عنهم ، والبيئات التي تأثروا بها أو نشأوا في كنفها ، وما اختلطوا به من قبائل عربية . ثم نستخرج من هذه الدراسة ما مرجعه فن القراءات ، أو اجتهاد القدماء من القراء ، وما يمكن أن يعزى إلى لهجة قديمة أبيع القراءة بها ، أو ببعض خصائصها . فقد احتفظت لنا القراءات القرآنية بعناصر هامة مرجعها اختلاف اللهجات العربية القديمة ، ولا بد من نسبتها إلى قبائلها أو بيئاتها .

ثالثها : جمع الروايات المتناثرة في بطون اللغة والأدب ، مما يمت إلى اللهجات القديمة بصلة ، ثم تمحيصها وتحقيقها وإصلاح ما فسد منها في رواية مبتورة ، أو رواية ممسوخة ، سالكين طريقة تتبع السند التي عنى بها علماء الحديث لتمييز الحق من الباطل ، والصحيح من الزائف . هذا إلى دراسة تاريخية مستفيضة لتنتقلات القبائل قبل الإسلام وبعده ، وبيئاتها الاجتماعية في العصور المختلفة ، وما خالطت من أمم أو شعوب .

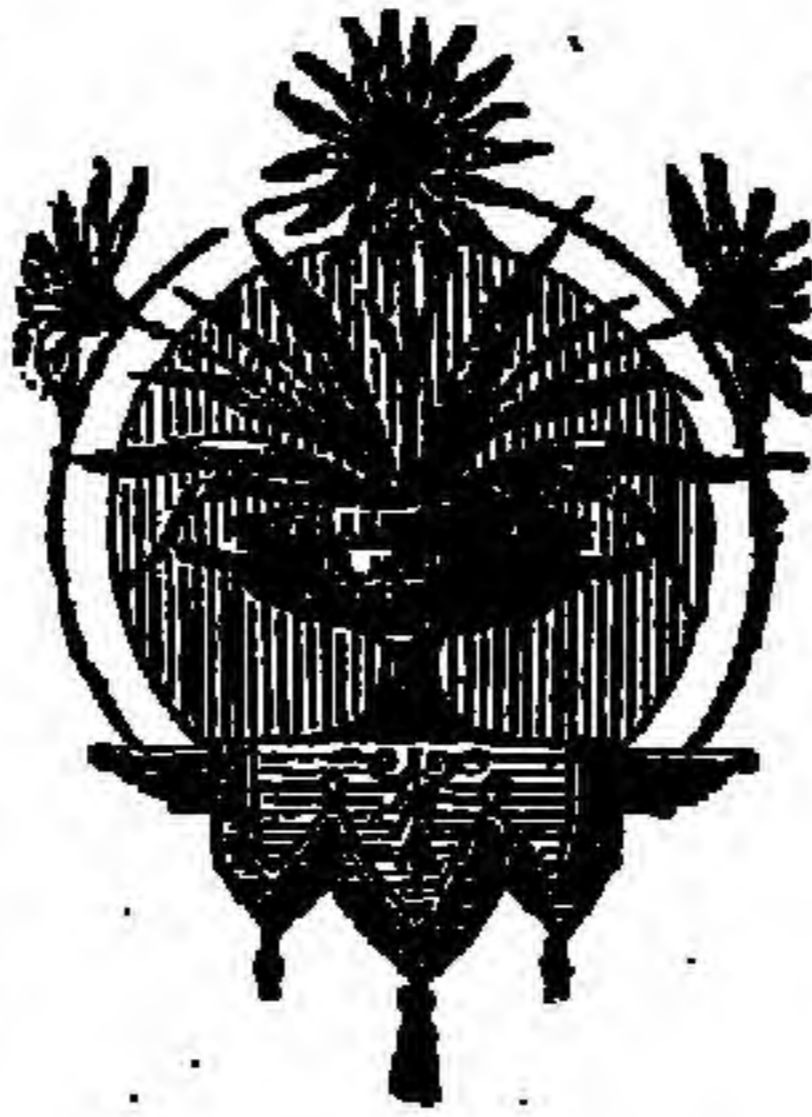
نرى من كل ما تقدم أن دراسة اللهجات القديمة ، والكشف عن أسرارها ، ونسبتها إلى قبائلها ، ليس بالأمر الهين اليسير . لأنه لا بد قبل البدء بها من جمع المادة لها ، وهذا الجمع يتطلب جهودا عظيمة يجب أن يقوم بها عدد من المشتغلين باللغات .

فإذا جمعت تلك المادة ، بدأنا مرحلة المقارنة ، واستنباط القوانين التي خضعت لها اللهجات العربية في عصورها الأولى ، وقوانين تطورها بعد الفتح الإسلامي .

ولست أدعى في كتابي هذا أني قمت بقسط كبير مما ذكرت ، أو أني  
اتبعت الطريق العلمي الدقيق التي يجب اتباعها في دراسة اللهجات ؛ ولكن  
ما لا يدرك كله لا يترك كله .

ولعل المستقبل يكفل لنا بمساعدة الهيئات العلمية أن نجد لهذا العمل  
الضخم جميع المعينين بمثل هذه الدراسات ، حتى تكمل وتم وفق الأصول  
العلمية الصحيحة .

ابراهيم أنيسى



# الفصل الأول

- ١ -

## اللهجة (•)

اللهجة في الاصطلاح العلمي الحديث هي مجموعة من الصفات اللغوية تنتمي إلى بيئة خاصة ، ويشترك في هذه الصفات جميع أفراد هذه البيئة . وبيئة اللهجة هي جزء من بيئة أوسع وأشمل تضم عدة لهجات ، لكل منها خصائصها ، ولكنها تشترك جميعاً في مجموعة من الظواهر اللغوية التي تيسر اتصال أفراد هذه البيئات بعضهم ببعض ، وهم ما قد يدور بينهم من حديث ، فهماً يتوقف على قدر الرابطة التي تربط بين هذه اللهجات .

وتلك البيئة الشاملة التي تتألف من عدة لهجات ، هي التي اصطلح المحدثون على تسميتها باللغة . فالعلاقة بين اللغة واللهجة هي العلاقة بين العام والخاص . فاللغة تشتمل عادة على عدة لهجات ، لكل منها ما يميزها . وجميع هذه اللهجات تشترك في مجموعة من الصفات اللغوية ، والعادات الكلامية التي تؤلف لغة مستقلة عن غيرها من اللغات .

والمحدثون من علماء اللغات يسمون الصفات التي تميزها كل لغة بالعادات الكلامية ؛ لأنها ليست إلا مجرد عادات نشأ عليها أبناء هذه اللغة ، وتأثروا

بها جيلا بعد جيل حتى أصبحت طابعا لهم يميزهم عن غيرهم من المتكلمين بلغات أخرى . وتلك العادات الكلامية هي عادات مكتسبة ، لا أثر للوراثة فيها ، يلقنها الطفل منذ يولد ، وينشأ عليها ، فيؤديها كلما عن له القول ، ولا يحميد عنها في حديثه . وهو في تأديته لها لا يشعر بخصائصها ؛ بل تصدر عنه دون تكلف أو تعمد ؛ وذلك هو ما اصطلح القدماء والمحدثون على تسميته الكلام بالسليقة . فشرط السليقة اللغوية ألا يشعر المتكلم بصفات كلامه وخصائصه ، وإنما هو يفكر فينطق معبرا عما فكر فيه بمجاميع من الأصوات ركبت تركيبا خاصا ، ولا غرض له يرمى إليه من كلامه سوى إقحام السامع ما يعنى ، دون أن يشعر بكيفية صدور هذه الأصوات عنه ، أو تركيبها ذلك التركيب الخاص . فإذا شعر بهذا ، وتعمد به ، أو قصد إلى تأدية الكلام وهو شاعر بصفاته وخصائصه ، خرج الكلام عن كونه سليقة ، وعد المتكلم أجنبيا عن اللغة . فمثل الكلام في هذا مثل كل العادات المكتسبة التي تصبح بعد تكررها ، والاعتياد عليها ، تؤدي دون شعور بكيفية أدائها . والمشى هو من بين تلك العادات المكتسبة ، يتعلمه الطفل في المراحل الأولى ، ويجد في تعلمه مشقة وعنتا ، ثم لا يلبث أن يصبح له عادة ، يؤديه دون أن يشعر بمشيقته أو كيف يقوم بها .

وكذلك اللغات ، يبدأ الطفل بتعلمها وهو شاعر بكل صوت من أصوات من حوله ، وكيفية تركيب هذه الأصوات ، فيظل يحاول تقليدها ، وإتقانها ، حتى تنتهي مرحلة خاصة في نموه ، بعدها يستطيع الكلام بالسليقة ، لأنه حينئذ يفقد الشعور بصفات كلامه ، وخصائصه . فالأطفال في مراحل تعلمهم لغة

آبائهم لا يتكلمونها بالسليقة ، وإنما يتعلمونها كما يتعلم الكبير أية لغة أجنبية ، مع ذلك الفارق الهام الذي يسرع بالطفل إلى إتقان لغة أبوية ، وهو تلك الفرص المستمرة التي تتاح للطفل في تعلمه ، من اتصاله الوثيق ببيئته اللغوية .

ويقسم المحدثون تلك العادات الكلامية في دراستها إلى فروع ثلاثة :

أ — ما يتعلق بالأصوات وطبيعتها ، وكيفية صدورها « Phonetics »

ب — وما يتعلق ببنية الكلمات ونسجها « Morphology » .

ج — وما يتعلق بتركيب الجمل « Syntax » .

فالصفات التي تتميز بها كل لغة تتألف من هذه العناصر اللغوية الثلاثة . والبحث في عادات كل لغة يعرض إلى كل منها .

وهناك فرع رابع يعرض له الباحث في اللغات ، وهو معاني الكلمات ، ودلالاتها « Semantics » . والبحث في هذا لا يقل أهمية عن البحث في العناصر الأخرى ، وإن لم يعد في نظر المحدثين من مقومات العادات الكلامية ؛ لأن المتكلم يشعر بمعاني كلماته ، ويتخير منها ما يروق في أثناء حديثه . وعلى قدر توفيقه في تخيرها يحسن حديثه ، ويترك الأثر المرجو من الكلام في سامعيه . لأن المعاني هي أغراض الكلام التي يهدف إليها كل متكلم ، لتحقيق غاياته في الاتصال بأبناء جنسه .

أما الصفات التي تتميز بها اللهجة فتكاد تنحصر في الفرع الأول ، أي الأصوات وطبيعتها ، وكيفية صدورها . فالذي يفرق بين لهجة وأخرى ، هو بعض الاختلاف الصوتي .

وتتميز بيئة اللهجة بصفات صوتية خاصة تخالف كل المخالفة أو بعضها ،

صفات اللهجات الأخرى في اللغة الواحدة . غير أن اللهجة قد تتميز أيضا بقليل من صفات ترجع إلى بنية الكلمة ونسجها ، أو معاني بعض الكلمات . ولكن يجب أن تكون هذه الصفات الخاصة التي مرجعها بنية الكلمات ودلالاتها ، من القلة بحيث لا تجعل اللهجة غريبة على أخواتها ، بعيدة عنها ، عسرة الفهم على أبناء اللهجات الأخرى في نفس اللغة . لأنه متى كثرت هذه الصفات الخاصة ، بعدت باللهجة عن أخواتها ، فلا تلبث أن تستقل وتصبح لغة قائمة بذاتها .

فلا بد أن تشترك لهجات اللغة الواحدة في الكثرة الغالبة من الكلمات ومعانيها ، وفي معظم الأسس التي تخضع لها بنية الكلمات ، وفوق هذا وذاك في تركيب الجمل . فإذا اختلفت معاني معظم كلماتها ، واتخذت أسسا خاصة في بنية كلماتها ، وقواعد خاصة في تركيب جملها ، لا تسمى حينئذ لهجة ، بل لغة مستقلة . وإن ظلت تتصل وغيرها بوشائج يجعلها جميعا تنتمي إلى فصيلة واحدة من الفصائل اللغوية .

فالفصيلة اللغوية تتألف من عدة لغات ، ترجع جميعها إلى أرومة واحدة ، وقد احتفظت كل منها بصفات يسهل على اللغوي إرجاعها إلى ذلك الأصل القديم . والعناصر التي تحتفظ بها لغات الفصيلة الواحدة هي تلك العناصر الخالدة التي لا يصبها إلا قليل من التغير رغم مرور الزمن عليها ، ورغم تطور فروع الفصيلة الواحدة .

وتلك العناصر القديمة تكاد تنحصر في الأمور الآتية :

١ - الضمائر .

٢ - الأعداد .



٣ - أسماء الإشارة والموصول .

٤ - الاشتراك في معاني نسبة كبيرة من الكلمات .

٥ - أدوات الربط بين أجزاء الجملة .

٦ - الاشتراك في كيفية تركيب الجمل .

وتتألف اللغة عادة من عدة لهجات ، تتميز كل لهجة منها بصفات صوتية خاصة ، يضاف إليها في بعض الأحيان اختلاف ضئيل في بنية بعض الكلمات ومعانيها .

أما تلك الصفات الصوتية التي تميز اللهجات ، فيمكن أن تلخص في النقاط الآتية :

١ - اختلاف في مخرج بعض الأصوات اللغوية .

٢ - اختلاف في وضع أعضاء النطق مع بعض الأصوات .

٣ - اختلاف في مقياس بعض أصوات اللين<sup>(١)</sup> .

٤ - تباين في النغمة الموسيقية للكلام .

٥ - اختلاف في قوانين التفاعل بين الأصوات المتجاورة حين يتأثر بعضها ببعض .

٦ - اختلاف في صفة بعض الأصوات اللغوية ، من جهر وهمس ،

أو شدة ورخاوة .

تلك هي أهم الصفات التي نلاحظ بعضها أو كلها بين لهجات اللغة الواحدة .

(١) أصوات اللين اصطلاح علمي حديث لما يسمى بالحركات طويلة ونصيرها النظر

للمؤلف كتاب « الأصوات اللغوية » صفحة ٣٠ .

وليس من الضروري أن نجد كل هذه الفروق ممثلة في لهجات لغة من اللغات ، بل قد نشهد بعضا منها فقط .

وتتباعد اللهجات أو تتقارب بعضها من بعض ، على قدر اشتغالها على الصفات السابقة ، وعلى قدر شيوع تلك الصفات فيها . فقد يكون للغة الواحدة لهجات متقاربة ، لا يفرق بين لهجة وأخرى منها سوى صفتين أو ثلاث من تلك الصفات . في حين أن لهجات بعض اللغات متباعدة لا تكاد تستبين للسامعين ، ولا يكاد يفهمها كل الأفراد في شعب من الشعوب .

ومن العسير أن نضع حدا أدنى للفروق بين لهجات اللغة الواحدة ، متى وجد امتازت لهجة عن أختها ، أو قيل إن هذه لهجة ، وتلك لهجة أخرى ، وكلاهما في لغة واحدة . نعم من العسير وضع هذا الحد الأدنى ، لأن عملية النطق ليست إلا نشاطا عضليا يختلف أداؤه باختلاف أفراد البيئة اللغوية الواحدة . وقد برهنت التجارب الدقيقة التي قام بها علماء الأصوات اللغوية على أنه لا يكاد يوجد شخصان في بيئة واحدة ينطقان نطقا متماثلا تمام التماثل ، بل لا بد أن تلحظ الأذن المدربة بعض الفروق الصوتية الدقيقة . وقد ظهر هذا جليا حين سجل نطق بعض الأفراد في البيئة اللغوية الواحدة . بل إن من العلماء من يؤكدون أن المرء نفسه يختلف نطقه بعض الاختلاف في كل مرة يتكلم فيها وإن اشتركت نفس الكلمات في قوله . وذلك لأن عضلات النطق لا تؤدي عملها بنفس الصورة في كل مرة . على أن مثل هذه الفروق الدقيقة بين نطق المرء ونفسه في ظرفين متماثلين ، أو بين أبناء اللهجة الواحدة ، ليست من الأهمية في الدراسة اللغوية بحيث نعتى بها ، ونجملها ونشرحها . وإنما يكتب اللغوي عادة

بملاحظة تلك الصفات العامة التي تميز لهجة من اللهجات ، والتي يشترك فيها كل أفراد تلك اللهجة ، وهي تلك الصفات التي نراها ممثلة دائماً في كلامهم ، تصدر عنهم بالسليقة دون تكلف أو تعمد .

هذا إلى أن الظروف الاجتماعية في البيئة الواحدة قد تقسم اللهجة الواحدة إلى شعب ، يلحظ الفرق بينها ذوو الملاحظة السمعية الدقيقة . فقد يختلف النطق بين أسرة وأخرى ، وبين أصحاب حرف من الحرف وغيرهم من أصحاب الحرف الأخرى ، وهكذا لا يكاد ينتهي مثل هذا التشعب في اللهجة الواحدة . لهذا اكتفى المحدثون بالنظرة العامة لصفات اللهجة جميعها ، تلك الصفات البارزة المقومة للهجة والتي تميزها عن غيرها من اللهجات .

ولهذا كله كان من العسير تحديد الحد الأدنى الذي تتميز به اللهجات ، وإنما يمكن أن يقال إنه متى برزت صفات خاصة ، واتضحت للسامعين ، وظهر اختلافها عن صفات البيئات الأخرى للغة الواحدة ، أمكن القول إن هناك لهجة قد نشأت وتميزت . وتدرس حينئذ على أنها لهجة مستقلة . وليس هناك رابط بين اللهجة الواحدة ككتلة متميزة ، وبين سعة بيئتها أو عدد سكانها . فقد تتكون لهجة مستقلة في بيئة جغرافية ضيقة قليلة السكان . غير أننا نلاحظ بصفة عامة ، أن اللهجات القديمة كانت منعزلة في بيئات ضيقة قليلة السكان ، في حين أن اللهجات الحديثة قد اتسعت رقعتها ، وكثر المتكلمون بها .

- ٢ -

## كيف تتكون اللهجات

هناك عاملان رئيسيان يعزى إليهما تكوّن اللهجات في العالم وهما :

( أ ) الانفصال بين بيئات الشعب الواحد .

( ب ) الصراع اللغوي نتيجة غزو أو هجرات .

وقد شهد التاريخ نشوء عدة لهجات مستقلة للغة الواحدة ، نتيجة أحد هذين العاملين أو كليهما معاً .

فحين نتصور لغة من اللغات قد اتسعت رقعتها ، وفصل بين أجزاء أراضيها عوامل جغرافية ، أو اجتماعية ، نستطيع الحكم على إمكان تشعب هذه اللغة الواحدة إلى لهجات عدة . فقد تفصل جبال أو أنهار أو صحارى أو نحو ذلك ، بين بيئات اللغة الواحدة . ويترتب على هذا الانفصال قلة احتكاك أبناء الشعب الواحد بعضهم ببعض ، أو انفصال بعضهم عن بعض ، ويتبع هذا أن تتكوّن مجاميع من البيئات اللغوية المنعزلة التي لا تلبث بعد مرور قرن أو قرنين أن تتطور تطوراً مستقلاً ، يباعدها عن صفاتها ، ويشعبها إلى لهجات متميزة . إذ لا بد من تطور الكلام وتغيره على مرور الزمن . ولكن الطريق الذي يسلكه الكلام في هذا التطور يختلف من بيئة إلى أخرى ؛ لأن ظروف الكلام تختلف بين البيئات المنعزلة . ولو أمكن أن تتحد تلك الظروف لاتخذ الكلام طريقاً واحداً في تطوره ، وشكلاً واحداً في تغيره ، ولظلت البيئات المنعزلة ذات لهجة واحدة لا تشعب إلى صفات متباينة ، ولكن الواقع المشاهد أن

البيئات متى انعزلت اتخذت أشكالاً متغايرة في تطور لهجاتها . فليس للانعزال الجغرافي وحده كل الأثر في تكون اللهجات ؛ بل يجب أن يضم إليه الانعزال الاجتماعي ، واختلاف الظروف الاجتماعية بين البيئات المنعزلة . فمن بين هذه البيئات المنعزلة ما تتخذ فيها العلاقة بين أفراد الأسرة شكلاً خاصاً ونظماً خاصاً . ومنها ما قد تشتهر فيه مهنة خاصة ، أو تتصف بطبيعة خاصة في تربتها تصلح لنوع خاص من الزراعة أو الصناعة . فأبناء البيئات الزراعية لهم من الظروف الاجتماعية ما يخالف ظروف أبناء البيئات الصناعية أو التجارية .

فتلك الظروف الاجتماعية التي لا تكاد تقع تحت حصر ، هي التي تساعد الانعزال الجغرافي على اختلاف الطريق الذي يسلكه الكلام في تطوره .

وكما أن هناك اختلافاً بين الظروف الاجتماعية ، في البيئات المنعزلة من المملكة الواحدة ، هناك عوامل اشتراك بينها جميعاً ، قد ترجع إلى رابطة سياسية ، أو نعة قومية ، أو اتجاه خاص في التفكير . وتلك العوامل المشتركة بين بيئات المملكة الواحدة ، هي التي تحافظ على استمرار نوع من الوحدة بينها ، وتعرقل من ذلك التغير الذي قد يباعد بين بيئاتها . ولا يزال الأمر بين عوامل انفصال ، وعوامل اتصال ، هذه تباعد بين اللهجات ، وتلك تقرب بينها . ولكن الغلبة في جميع الأمثلة التاريخية كانت دائماً لعوامل الانفصال في آخر الأمر ، فتشعبت اللغات إلى لهجات ، واستقلت اللهجات وتميزت بعضها عن بعض ؛ ولكن كان لا بد لهذا الشعب من زمن طويل حتى يتحقق وجوده .

وخير مثل يمكن أن يضرب لهذا الانعزال الذي يشعب اللغة الواحدة إلى لهجات ، تلك اللهجات العربية القديمة في جزيرة العرب قبل الإسلام . وأخذت

الأمثلة لهذا الانعزال ما حدث للأسبانية والإنجليزية حين انتشر كلاهما في بقاع بعيدة ، الأولى في أمريكا الجنوبية ، والثانية في أمريكا الشمالية . وبدأنا الآن نلاحظ فروقا صوتية بين أسبانية أوروبا وأسبانية أمريكا ، وإنجليزية أوروبا وإنجليزية أمريكا .

فانتشار اللغة الواحدة في بيئات منعزلة يكون لهجات لا تلبث أن تستقل وتميز بصفات خاصة .

أما العامل الرئيسى الثانى لتكوين اللهجات فهو الصراع اللغوى نتيجة غزو أو هجرات إلى بيئات معمورة . فقد يغزو شعب من الشعوب أرضا يتكلم أهلها لغة أخرى ، فيقوم صراع عنيف بين اللغتين الغازية والمغزوة ، وتكون النتيجة عادة إما القضاء على إحدى اللغتين قضاء يكاد يكون تاما ، أو أن ينشأ من هذا الصراع لغة مشتقة من كلتا اللغتين الغازية والمغزوة ، تشتمل على عناصر من هذه وأخرى من تلك .

وقد حدثنا التاريخ عن أمثلة كثيرة للصراع اللغوى . فقد غزا العرب جهات كثيرة متعددة اللغات واستطاعت اللغة العربية آخر الأمر أن تصرع تلك اللغات في معيها ، وأن تحمل محلها . فقد تغلبت على الآرامية في العراق والشام ، وعلى القبطية في مصر ، والبربرية في بلاد المغرب ، والفارسية في بعض بقاع مملكة فارس القديمة .

كما يحدثنا التاريخ أن غزو الرومان لجهات كثيرة في أوروبا ، جعل الرومانية تحمل محل عدة لغات كان يتكلم بها في تلك الجهات .

وقد استعرض المحدثون من علماء اللغات الأمثلة التاريخية للصراع اللغوى

غزوها أنواعا ، وقد رأوا أن نتيجة الصراع تختلف حسب كل نوع وظروفه :

(١) فهناك غزو كان الغزاة فيه قليلى العدد ، قد اقتصر على جيش قوى كامل العدة ، ظهر تفوقه ساعة القتال ، فلما وضعت الحرب أوزارها ، وبدأ الغزاة حياة سلمية مع أهل الأرض المغزوة ، ظهرت قوتهم ، وضعف أثرهم ، وبدأ المستوطنون منهم يهجرون لغتهم الأصلية ، متأثرين بلغة البيئـة الجديدة . غير أن اللغة المغزوة قد تستعير في مثل هذه الحالة بعض الكلمات والأساليب من اللغة الغازية ، كذلك التي تعبر عن نظام الحكم ، وأمور الجيش ونحو ذلك . وخير مثل لهذا غزو النورمندين لـانجلترا في القرن الحادى عشر ، إذ تغلبت اللغة الإنجليزية على لغة الغزاة بعد زمن مـا ، وقد تركت النورماندية الفرنسية آثارا ضئيلة باللغة الإنجليزية . ويطول زمن الصراع أو يقصر في مثل هذه الحالة ، حسب قرب اللغتين الغازية والمغزوة إحداهما من الأخرى ، وعلى قدر اعتزاز الغزاة بموطنهم الأصلى ، وتمسكهم بتقاليدهم وعاداتهم ، ومقدار اختلاطهم بالشعب المغزوة .

(٢) وهناك غزو كثـر الغزاة فيه ، وتبعه موجات من هجرات لذلك الشعب الغازى . جاءت بطوائف كثيرة من الناس ، يستعمرون الأرض ، ويشتركون في مـنها وجرفها ، ويلتمسون الرزق من مواردها ، زراعة أو صناعة ، فلا يذعنون مجالا لاجتلاب الخير إلا طرقوه ، ولا موردا للحصول على نفع إلا أسرعوا إليه .

وفي مثل هذه الحالة ترى الغزاة يكونون الطبقة العليا والوسطى ، في حين أن من قهرروا في عقر دارهم يكونون الطبقة الدنيا ، تلك الطبقة الضعيفة المتقلدة

التي تعتر بصفات الغالب ، وبكل ما جاء به ، ومن بين ذلك اللغة . فلا تلبث اللغة المغزوة في صراعها إلا زمنا قصيرا بعده تهزم تاركة آثارا ضئيلة جدا في اللغة الغازية التي تشيع بين الناس ، وتصبح لغة الخاص والعام . وتكاد تنحصر تلك الآثار التي تخلفها اللغة المغزوة في صفات صوتية خاصة ، أو بضع كلمات تعبر عن من حقيرة ، أو عن أشياء اختصت بها البيئة المغزوة من حيوان أو نبات . وخير مثل لهذا ، غزو الانجلوساكسون لبلاد الانجليز قديما ، ذلك الغزو الذي قضى على اللغة « السلتية » القديمة التي تركت آثارا ضئيلة جدا في اللغة الانجليزية الغازية .

(٣) أما هجرة شعب إلى أرض معمورة ، دون غزو منظم تقوم به جيوش محاربة ، وإنما الأمر مناقسة في طلب العيش ، فقد حدثت أمثلة له في العصور التاريخية ، حين هاجر قوم من الساميين إلى بلاد ما بين النهرين ، وكونوا على أنقاض السومريين ، تلك المملكة التي عرفت فيما بعد بمملكة البابليين والآشوريين . وقد قضت هذه الهجرة السامية على اللغة السومرية بعد أن تركت في اللغة السامية آثارا ، وأحدثت بها أحداثا جعلتها تباين أخواتها السامية في جهات أخرى .

واحتكاك اللغات الغازية ومعها لهجاتها المتباينة ، باللغات المغزوة التي تشمل على لهجات أيضا ، يولد لنا أنواعا جديدة من اللهجات . فنحن حين نستعرض اللهجات العربية الحديثة ، نراها قد اتخذت في مصر شكلا من الأشكال يباين ذلك الذي اتخذته في العراق أو الشام أو بلاد المغرب .

ويمكن أن تعزى تلك المتباينة بين اللهجات العربية الحديثة إلى اختلاف لهجات الغزاة من العرب ، وإلى التطور المستقل في تلك البيئات الجديدة ، وفوق هذا:



وذلك إلى أثر اللغات الأصلية في هذه البيئات . فقد تركت القبطية قبل زوالها  
 آثارا في العربية المصرية ، كما تركت الآرامية آثارا مباينة في عربية بلاد الشام ،  
 وكما تركت البربرية آثارا أخرى في عربية بلاد المغرب وهكذا .  
 من أجل هذا نشهد الآن لهجات متباينة في البلاد العربية .  
 فاللهجات تتكون من انتشار اللغة ، واتساع رقعتها ، ومن كل صراع  
 لغوي نتيجة الغزو والهجرات .



## الفصل الثاني

- ١ -

### اللغة العربية قبل الإسلام

حين نعرض للغة العربية قبل الإسلام ، لا نريد أن نذهب إلى أبعد من تلك العصور الجاهلية التي رويت لها آثار أدبية من شعر أو نثر .  
والذي تحققت صحته من تلك الآثار الأدبية ، لا يكاد يجاوز قرنا أو قرنين قبل ظهور الإسلام . وقد ظلت تلك الآثار الأدبية تتناقلها الألسن ، وتعيها الحافظة زمتنا ليس بالقصير . ومهما يكن من عناية العرب بأدابهم ، واعتمادهم على الذاكرة ، حين فقدت وسائل التدوين ، وشاعت الأمية بينهم ، مما يكن من قوة هذه الذاكرة ، فلا شك أن تلك الآثار قد اعتورها من عوامل النقص والزيادة ، وضعف الرواية في بعض الأحيان ، ما جعل العلماء قديمهم وحديثهم يتشككون في صحة بعض تلك الآثار ، أو على الأقل في نسبتها لأصحابها . لأنه قد مرت فترة تزيد على قرنين بين عهد أنشئت فيه تلك الآثار وعهد التدوين .

والتاريخ السياسي والاجتماعي لجزيرة العرب قبل الإسلام ، غامض في كثير من نواحيه ، وما روى عنه فيما بعد قد اشتمل على كثير من الروايات التاريخية التي تعوزها دقة الرواية والتحقيق العلمي . ومع هذا فنستطيع بما

يروى لنا أن نتصور جزيرة العرب في الجاهلية منقسمة إلى بيئتين تكادان تكونان مستقلتين من الناحيتين الاجتماعية والثقافية: البيئة الأولى بيئة الحواضر في مكة ويثرب وفي مدن اليمن الكبرى ، والبيئة الأخرى البيئة البدوية المتنقلة المنعزلة التي لا تكاد تستقر على حال .

ورغم تلك العوامل السياسية والاجتماعية التي قربت بين البيئتين قبل الإسلام ، من مواسم للحج ، وأسواق للتجارة ، قد ظل النظام في البيئة البدوية قريبا ، فيه الاعتزاز بالقبيلة ورئيسها ، وما يمكن أن يكون فيها من تقاليد خاصة تمسكوا بها وذاذوا عنها . ولم يتوثق الاتصال بين هاتين البيئتين إلا قبيل الإسلام ، بعد أن ظلت الجزيرة عشرات من السنين قبل هذا مفككة بالصلات ، تكونت فيها جماعات من الناس استقلت بحياتها وتقاليدها ، وانعزلت بعضها عن بعض .

فأبعد ما يمكن أن نتصوره لجزيرة العرب هو أن نراها مكونة من وحدات منعزلة تمثل في قبائلها . وانعزال تلك القبائل بعضها عن بعض ، واستمسكهم بنظمهم وتقاليدهم ، قد أدى إلى نشأة اللهجات العربية القديمة التي روى لنا طرف منها في كتب اللغة والأدب والتاريخ . ورغم اشتراك القبائل في بعض النظم الاجتماعية ، قد دعت تقاليدها الخاصة ، وبيئاتها الجغرافية الخاصة ، إلى تطور مستقل في لهجاتها ، وكان من نتيجته تلك الصفات الخاصة التي نلاحظها في لهجة كل قبيلة . فالقبيلة التي دعت ظروفها إلى شن الغارات وإلى التفرقة بين المرء وأهله ، وبعد الأطفال عن رعاية أهلهم ورقابتهم ، ليست كذلك التي ظلت زمانا طويلا هادئة وادعة قد توثقت فيها الصلة بين

أفراد الأسرة . لأنه في الأولى ينشأ الأطفال منعزلين قليلى الاحتكاك والاتصال  
 برجال القبيلة . ومثل تلك الحال تساعد على نمو تلك التطورات اللغوية التى  
 يعزوها المحدثون عادة إلى الأطفال وأخطائهم . فإذا مرّ جيل أو جيلان رأينا  
 تلك التطورات التى لم تكن فى بادىء الأمر إلا أخطاء أطفال لم تصلح فى  
 حينها ، قد أصبحت فيما بعد عنصرا صحيحا معترفا به بين المتكلمين بهذه اللهجة .  
 هذا إلى ما قد يكون الأمهات من أثر فى تطور اللهجة من حال إلى حال . وكل  
 هذا نتيجة الانعزال بين رجال القبيلة ونسائها وأطفالها لظروف اجتماعية خاصة .  
 أما حيث تتوثق الصلة بين أفراد القبيلة فنلاحظ أن التغيير يكون بطيئا ،  
 ولكنه ينمو أيضا مع الزمن . لأن الكلام عملية عضلية لا تؤدى دائما بشكل  
 واحد ، فلا تلبث الأجيال المتعاقبة أن تتوارث صوراً مختلفة منه ، ثم تتراكم  
 تلك الاختلافات حتى تصبح صفة خاصة لتلك اللهجة .

فاللهجات العربية القديمة هى نتيجة انعزال القبائل أولا ، ونتيجة التطور  
 المستقل لكلام كل قبيلة ثانيا . ولا بد من مرور زمن طويل قد يبلغ قرنين  
 أو ثلاثة قبل أن تتبلور تلك الصفة وتصبح من مميزات قبيلة من القبائل .

وليس يعنيننا هنا البحث عما كانت عليه تلك اللهجات القديمة قبل العصور  
 الجاهلية التى روى لنا الشئ الكثير عنها ، ولا البحث عن المراحل التى  
 مرت بها حتى صارت على الصورة التى رويت لنا فى كتب التاريخ والأدب .  
 وإتاما الذى نهدف إليه هنا هو أن تصور تلك اللهجات التى نعرفها من روايات  
 الرواة تصويرا علميا صحيحا بقدر الإمكان .

نحن إذن أمام لهجات مستقلة ذات صفات خاصة ، تميزت بها القبائل

العربية قبل ظهور تلك العوامل السياسية التي أدت آخر الأمر إلى ظهور الإسلام . فلما دعت الحاجة إلى اتصال تلك القبائل في مواسم الحج قبل الإسلام وإلى عقد تلك المؤتمرات الثقافية التي سميت بالأسواق ، بدأت الحاجة إلى وسيلة للتفاهم تجمع بين تلك القبائل . وهنا نشهد ما يحدث عادة بين البيئات المنعزلة حين تبغى الوحدة ، إذ تتخذ مركزاً واحداً تتطلع إليه ، وتطمئن إليه ، لنا يمتاز به من نهضة في الثقافة ، أو نفوذ سياسي .

وليس هناك ما يقرب بين الجماعات المتنافرة ، كاللغة الموحدة التي تجمع شملهم وتلم شتاتهم .

فلما بدأت عوامل الوحدة السياسية والثقافية بين القبائل تهيأت كل الظروف لجعل مكة مركزاً لتلك الوحدة ، وبدأ رؤساء القبائل يفدون إليها يحجون ذلك البيت الذي قدسوه قبل الإسلام ، كما وفدوا للتجارة ، وليشهدوا منافع لهم في أسواق كانت مجالاً للثقافة بين القبائل ، فيها تعقد المناظرات الأدبية والمساجلات من شعر أو خطابة .

وليؤدى الخطيب رسالته كاملة واضحة ، وليترك سامعيه مشدوهين معجبين بقوله وبلباقة ، كان عليه أن يتحاشى تلك الصفات الخاصة التي تتصل بلهجة من اللهجات ، وأن يتحدث إلى القوم بلغة تواضعوا عليها ، وألقوا جميعاً . كذلك كان لا بد لأولئك الشعراء الذين جاءوا من بيئات متباينة أن ينظموا شعرهم بلغة خالية من عننة أو عجمجة أو كشكشة ، لينال إعجاب سامعيه ، ولا يكون موضع سخريتهم وهزئهم . وإلا فكيف كان من الممكن أن

يفضل شاعر على شاعر في تلك المناظرات إذا كان المقياس مختلفا ، وأداة القول متباينة .

لهذا توحدت القبائل في لغة أدبية ممتازة مختارة الألفاظ يعمد إليها الشاعر والخطيب كلما عن له القول . وتلك كانت اللغة النموذجية ، لغة الخاصة من الناس ، اللغة التي استججت أن تروى آثارها ، ويعتز بها زمانا طويلا .

وظلت مع هذا كل قبيلة تمسك بلهجة كلامها في الخطاب العادي بين أفراد القبيلة بعضهم مع بعض . فالوحدة اللغوية بدأت قبل ظهور الإسلام ؛ بل ومنت وازدهرت ، وعرف كثير من العرب من قبائل مختلفة بفصاحة القول وإجادة الشعر . لأن إتقان تلك اللغة الأدبية كان موضع فخر بين رؤساء القبائل والخاصة من الناس ، يحاولون إتقانها والتفنن في نواحي القول بها .

وعلى هذا إذا قيل لنا إن القرآن الكريم قد تحدى الفصحاء من العرب ، فليس يعني هذا أنه تحدى جميع العرب ؛ وإنما قد تحدى أولئك الذين كرسوا حياتهم على نواحي القول فأجادوها خطابة وشعرا ، أولئك الذين هم خاصة العرب والمثقفون منهم . وليست كل الثقافة قراءة أو كتابة ، فربما كان بين الأميين مثقفون تفتتت أذهانهم ، ونظروا إلى الحياة نظرة أوسع وأشمل من كثير ممن يحسنون تلك الوسيلة الناقضة التي تسمى بالكتابة .

وأهم وسيلة في الثقافة اللغوية هي تلك الوسيلة الطبيعية التي عن طريقها تعلمنا الكلام ، أعتى وسيلة السماع ؛ فهي أسرع وأدق من وسيلة الكتابة والقراءة ، ولكن نفعها مقصور على السامعين ، وعلى أولئك الذين تحتاج لهم الفرص ليشهدوا مجال القول ممن وهبوا اللباقة في الكلام ، والذلاقة في اللسان .

وإذا كان للقراءة والكتابة فضل فهو الشمول ، واتساع دائرة الثقافة .  
لهذا كانت الثقافة اللغوية في الجاهلية مقصورة على أولئك الذين شهدوا مجالس  
الخطابة والشعر ، وهم الخاصة من الناس .

ولما جاء الإسلام ، ونزل القرآن بتلك اللغة الأدبية قوّمى من تلك  
الوحدة اللغوية التي كانت قد نمت وازدهرت قبل نزوله ، وزاد في شمولها لأن  
الرغبة الدينية ، وقوة الشعور الديني قد دعا كثيرا من العامة إلى تفهم الكتاب  
الكريم والتعبد به . ولم يكن الأسلوب القرآني في متناول جميع العرب ، بل  
كان أسمى من هذا وأرقى . فقد جاء يتحدى الخاصة منهم ، وظل حتى الآن  
يتحدى الخاصة منا . ولم يمنع هذا أن يبجل في كل جيل ، وأن يتعبد به في  
كل زمان .

ولا معنى لأن تنساق مع الرواة الأقدمين فننسب لكل العرب الفصاحة  
في القول ، والإجادة في صناعة الكلام ، إذ ليس العرب إلا شعبا ككل  
الشعوب فيهم القليلون ممن وهبوا تلك الصفة ، وأغلبهم من العامة الذين  
يكتفون في حياتهم بنصيب ضئيل من حسن القول وفصاحته .

وتلك اللغة الأدبية التي خطب بها الخطباء ، وشعر بها الشعراء ، ونزل بها  
القرآن الكريم ، لم تكن لغة تخاطب للناس في حياتهم العامة ، بل يجب  
أن تنزه عن هذا ، وأن ترقى بها إلى مستوى أرفع منزلة من أماليب التخاطب .  
لم تكن إذن لغة سليقة يتكلمها الناس دون شعور بخصائصها ، بل كان  
المتكلم بها يشعر كل الشعور بنواجي القوة والجمال فيها ، ويتطلع إلى إجادتها  
وتحسينها . أما لغة التخاطب فهي تلك التي يمكن أن يقال إن الناس كانوا

يتكلمونها بالسليقة ، ويؤدون بها التافه من شئونهم ، لا يعمدون إليها عن قصد ، ولا يتخيرون ألفاظها ، بل يكتفون منها بتأدية الأغراض العامة في الحياة العادية . فإذا جد الجد وتطلب المجال نواحي خاصة من القول ، نواحي جدية لا يعمد إليها في كل يوم ، لجأ المتكلم من الخاصة إلى تلك اللغة الأدبية ، ورآها أهلاً لذلك .

لهذا رويت لنا الآثار الأدبية القديمة في لغة موحدة ، لا تشمل على خصائص من تلك التي رويت عن اللهجات العربية القديمة . ولا يعقل أن الرواة رووها موحدة ، وغيروا تلك الصفات الخاصة التي يمكن أن يكون قد اشتمل عليها شعر شاعر من قبيلة عرفت بلهجة من اللهجات ، لأن مثل هذا التغيير ليس ممكناً في كل الحالات . فإذا أمكن عمله في النثر فإن الوزن الشعري يآباه في بعض الأحيان .

ونحن حين نستعرض شعراء ربيعة تلك القبيلة التي عرفت بالكشكشة لا نكاد نلمح أثراً لتلك الصفة في شعر شعرائها . ورواية شعر فيه كشكشة يشعر خال منها تأباه الأوزان الشعرية .

لهذا نرجح أن اللغة الأدبية كانت موحدة قبل الإسلام ، وظلت موحدة بعده ، وقد خلت من الصفات الخاصة للهجات ، تلك الصفات التي نقر منها خاصة العرب ، وأصبحت بعد الإسلام موضع السخرية في كثير من الأحيان . فقد رويت لنا روايات كثيرة عن بعض الأعراب وقد حضروا مجالس الخلفاء ولا سيما أمام معاوية ، حين برثوا من طمطمانية حمير وعجاجة قضاة ، وعدوا



أمثال تلك الصفات بعدا عن الفصاحة ، بل تكاد تكون نوعا من الرطانة أو العجمة .

- ٢ -

## كيف كان ينظر إلى اللهجات

لقد اختلفت النظرة إلى اللهجات العربية القديمة باختلاف العصور ،  
والعوامل السياسية والاجتماعية في كل منها :

فقبل الاسلام استمسكت كل قبيلة بصفات الكلامية ، في حديثها العادي  
وفي لهجات التخاطب ، ولكن الخاصة من الناس في تلك القبائل قد لجأوا إلى  
تلك اللغة النموذجية التي نشأت في مكة ، في شئونهم الجدية ، يخطبون بها  
وينظمون الشعر ، وينفرون من صفات اللهجات في مثل هذا المجال . حتى إذا  
عادوا إلى بيئاتهم تحدثوا إلى الناس في الشئون العامة بمثل لهجتهم ، لئلا تنفر  
منهم النفوس . وإنما مثلهم في هذا مثل بعض الأعيان من أهل الريف المصري  
حين يقدون إلى القاهرة ، ويخالطون المثقفين فيها فلا تكاد نلاحظ في كلامهم  
صفات خاصة تنبئ عن بيئتهم الريفية . فإذا عادوا إلى مفرم الأصل سمعناهم  
يخطبون الناس بلهجاتهم كأن لم يبرحوا تلك البيئات ولا يوما واحدا . وأولئك  
الخاصة من أعيان الريف يجلبون لكل مجال ما يناسبه من القول ، فهم بين  
المثقفين من القاهريين مثلهم ، وهم بين أهلهم وذويهم في البيئة الريفية  
مثلهم أيضا .

تلك هي الحال التي كانت شائعة بين الخاصة من رؤساء القبائل ، يزونه عيباً أن يخطبوا في سوق كسوق عكاظ بتلك اللهجة الخاصة بهم ، كما يزونه عيباً أن يتحدثوا إلى قبائلهم بغير تلك اللهجات . هذه حال كانت مألوفة بين القبائل ، متواضعاً عليها ، ولهذا لم ترد لنا روايات جاهلية عن السخرية بصفات كلامية لقبيلة من القبائل أو القدح فيها .

فلما جاء الإسلام ، وأراد أن يتألف قلوب العامة والخاصة معاً ، سمح بأن يقرأ القرآن الكريم ببعض تلك الصفات التي لم يكن في مقدور العامة غيرها . فالقرآن الكريم وإن نزل بلهجة موحدة ، ولغة أدبية موحدة ؛ أبيح في قراءته الخروج عن تلك اللغة الموحدة ، تيسيراً على عامة العرب ، وتأليفاً لقلوبهم . وهذا هو معنى الحديث الشريف « أنزل القرآن على سبعة أحرف » . وسنعرض فيما بعد إلى ما اشتملت عليه القراءات القرآنية من صفات اللهجات العربية القديمة .

ثم اتسعت المملكة العربية حتى شملت دولا كثيرة ، فكان لا بد لضمان وحدتها ، والقضاء على عوامل التفرقة فيها ألا تعطي اللهجات العربية من العناية ما قد يزيد من عصبية القبائل ويباعد بينها . فأهمل أمرها ، ولم يرو عنها إلا القليل في ثنايا كتب اللغة والأدب والتاريخ . بل إن ما روى عنها جاءنا مبتوراً ناقصاً في معظم الأحيان . ولسنا نعلم مؤلفاً من علماء العرب ، على وفرتهم واهتمامهم بكل دقائق الدراسة اللغوية ، عني باللهجات العربية عناية خاصة فأفرد لها كتاباً مستقلاً . وكل مانعنا من تلك اللهجات من روايات الأقدمين لا يبدو أن يكون مجرد إشارات مبعثرة هنا وهناك ، تضمنتها كتب التاريخ والأدب .

ولما جاء عهد التدين بدأ الرواة يفرقون بين قبيلة وأخرى ، فينسبون الفصاحة لهذه ، وينكرونها على تلك . فقد رفضوا الأخذ عن تلك القبائل المتطرفة التي كانت مساكنها حدود الجزيرة العربية . فلم يأخذوا عن قضاة لجاورتها بلاد الرومان ، واحتمال تأثرهم بلغة الروم في حدود سوريا وفلسطين . كما رفضوا الأخذ عن تغلب والنمر ، لقربهم من أرض الجزيرة وتأثرهم بالفارسية واليونانية . كما أنكروا الفصاحة على بكر لاتصالحهم بالفرس والنبط .

وقالوا أيضاً إن اختلاط قبائل اليمن بالحبشة قد أضعف من فصاحتهم ، وإن اتصال لحم وجدام بمصر قد جعل لغتهم موضع الشك ، فلا يحتاج بها في الروايات اللغوية .

وقد آثر الرواة الأخذ عن قريش وقيس وتميم وأسد وهزبل وغيرهم ممن كانت مساكنهم في وسط الجزيرة . على أنهم فيما بعد بدأوا يختلفون في التفرقة بين القبائل ، فلم يكفد ينقضي القرن الرابع الهجري حتى ظهر من علماء العرب من لم يفرق بين قبيلة وأخرى ، بل عدم جميعاً سواء في جواز الأخذ عنهم ، والاحتجاج بأقوالهم . فقد عقد ابن جنى في كتابه الخصائص فصلاً مستقلاً سماه « اختلاف اللغات وكلها حجة » ، أشار فيه إلى بعض الصفات المشهورة عن لهجات القبائل ، وأن بعض تلك الصفات أشهر من البعض الآخر ، وأكثر شيوعاً في اللغة ، ولكنها جميعاً مما يحتاج به ، إلى أن قال ما نصه « إلا أن إنساناً لو استعملها لم يكن مخطئاً لكلام العرب ، لكنه يكون مخطئاً لأجود اللغتين ، فأما إن احتاج

إلى ذلك في شعر أو مسجع فإنه مقبول منه غير منعى عليه .

تلك هي نظرة الأقدمين للهجات العربية القديمة في العصور المختلفة . ومنها يتضح لنا مبالغة المتأخرين منهم في الاعتزاز بكل ما ينسب إلى قبائل البدو حتى ولو كان مخالفا لما جاء به القرآن الكريم ، والآثار الأدبية في الجاهلية وصدر الإسلام . ذلك لأنهم لم يفرقوا بين اللغة الأدبية التي جاء الإسلام فوجدها موحدة ، ذات خصائص متميزة ، وبين لهجات التخاطب التي اشتتات على الصفات الخاصة للقبائل . وفي هذا من الاضطراب ما فيه ، لأن شرط اللغة الاطراد والتوحيد في الخصائص . فمحاولة بناء قواعد اللغة العربية من كل ما روى عن القبائل ، يؤدي حتما إلى التناقض ، ويبعد باللغة عن الانسجام والاتحاد في الخصائص . فلو أن الرواة وقفوا في استنباط قواعدهم عند اللغة الأدبية التي جاءتهم موحدة وممثلة في الآداب الجاهلية والقرآن الكريم ، لجنبوا أنفسهم كثيرا من المهاترات والجدل حول ما يجوز ، وما لا يجوز . ولكنهم حاولوا إقحام تلك الصفات الخاصة للهجات العربية ، فبذت لهذا لنا القواعد اللغوية مضطربة متعددة الوجوه إلى حد أن قال بعض الأقدمين « عجبت لنحوي بخطيء » !!

ولسنا نعلم لغة من لغات العالم قد تعددت فيها الوجوه ، وكثرت فيها الأقوال حول المسألة الواحدة ، كذلك الذي حاول النحاة أن يطلعونا عليه ، ويعرفونا به ؛ لأن شرط فهم الأفراد بعضهم لبعض في كل بيئة لغوية ، أن تطرد فيها الخصائص وتتحد وأن يصبح الشاذ فيها بنسبة ضئيلة جداً لا تكاد تذكر .

وربما كان المستول عن هذا الاضطراب ، ذلك الدور الذي لعبته السياسة العباسية ، في الصراع العلمى بين مدرستى البصرة والكوفة . فقد انتصر العباسيون للكوفيين في غالب الأحيان ، وبلغ التنافس بين أنصار المدرستين أوجه في عصور تدوين اللغة ، وكان كل فريق يجرح الآخر ويطعن فيما يرويه . « بل كان العلماء شغوفين بأن يققوا على كل جديد لم يعرفوه ، وكان يقضى على العالم في جهله بكلمة ، أو خطئه في مسألة ، فدعا ذلك بعضهم لأن يزيدوا ويختلفوا إذا أخرجوا »<sup>(١)</sup> .

---

(١) ضحى الاسلام الجزء الأول .

# الفصل الثالث

## القراءات القرآنية واللهجات

روى عن أبي بن كعب رضى الله عنه ، قال « دخلت المسجد أصبلي ، فدخل رجل فافتتح النحل ، فقرأ ، فخالفني في القراءة ، فلما انفتل قلت : من أقرأك ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ثم جاء رجل فقام يصلي ، فقرأ وافتتح النحل فخالفني وخالف صاحبي ، فلما انفتل قلت : من أقرأك ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : فدخل قلبي من الشك والتكذيب أشد مما كان في الجاهلية ، فأخذت بأيديهما ، فانطلقت بهما إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقلت : استقرى هذين ، فاستقرأ أحدهما وقال : أحسنت . فدخل قلبي من الشك والتكذيب أشد مما كان في الجاهلية . ثم استقرأ الآخر وقال : أحسنت . فدخل صدري من الشك والتكذيب أشد مما كان في الجاهلية ، فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم صدري بيده فقال : أعينك بالله يا أبا من الشك ، ثم قال : إن جبريل عليه السلام أتاني فقال : إن ربك عز وجل يأمرك أن تقرأ القرآن على حرف واحد ، فقلت : اللهم خفف عن أمتي ، ثم عاد فقال : إن ربك عز وجل يأمرك أن تقرأ القرآن على حرفين ، فقلت : اللهم خفف اللهم عن أمتي ، ثم عاد وقال : إن ربك عز وجل يأمرك أن تقرأ القرآن على سبعة أحرف . »

هذه هي إحدى الروايات التي بينت لنا أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يميز قراءات الناس ، ولا ينكرها عليهم ، متى كان موضع الخلاف فيها لهجات السننهم ، وما تعودوه من طريقة النطق .

وقد تواترت الروايات على صحة حديث « أنزل القرآن على سبعة أحرف » ، ولكن علماء العربية قد اختلفوا في تفسيره اختلافاً يكاد يبلغ حد الاضطراب . والحديث على وضوحه ، وانسجامه مع روح الإسلام ، قد أشرف في تأويله وتخرجه إلى حد أن روى له السيوطي في كتابه « الاتقان » أربعين وجهاً ! ولست أدري سر هذا الاختلاف ، وتعدد الأوجه ، إلا أن نعزوه إلى اجتهاد المتقدمين ، ومحاولتهم التوفيق بينه وبين ما تواضعوا عليه في شأن القراءات . ونحن لا نشك الآن في أن للحديث وجهاً واحداً ، يتفق والمنطق الإسلامي الذي يتلخص في أن الدين الإسلامي قد دعا الناس كافة في مشارق الأرض ومغاربها ، إلى الإيمان به ، واتخاذة عقيدة لهم . فلم يبعث النبي صلى الله عليه وسلم للشعب خاص من الشعوب ، وإنما أرسل إلى الناس كافة . هذا إلى أن الدين يسر لا عسر ، فقد اشتملت أحكامه وتعاليمه على كثير من الرخص حين يشق على الناس أمر من الأمور .

فنحن حين ننظر إلى هذا الحديث في ضوء الروح الإسلامي نرى أنه ليس إلا إحدى تلك الوسائل التي أريد بها للتيسير على الناس ، ومنع المشقة عنهم . فالمسلم أيًا كانت لهجته ، وأيًا كانت بيئته ، وأيًا كانت تلك الصفات الكلامية التي نشأ عليها وتعودها ولم يقدر إلا عليها ، يستطيع أن يقرأ القرآن بالقدر الذي تعودته. عضلات صوته في نطقه بلهجته أو لغته . ويجب ألا تنكر عليه ، أو أن

نهزاً من قراءته ، فقد حاول وبذل الجهد فله أجر اجتهاده .

وجميع الروايات التي سبقت قول هذا الحديث تؤيد ما نذهب إليه من أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يرد به إلا أن يمنع الناس من القدح في قراءة غيرهم ، وإنكارها عليهم .

وقد نادى بمثل هذا الرأي بعض العلماء الأقدمين . فقد روى ابن الجزرى في الجزء الأول من كتابه النشر في القراءات العشر ما نصه « كانت العرب الذين نزل القرآن بلغتهم ، لغاتهم مختلفة ، وألسنتهم شتى ، يعسر على أحدهم الانتقال من لغته إلى غيرها ، أو من حرف إلى آخر ، بل قد يكون بعضهم لا يقدر على ذلك ولو بالتعليم والعلاج لا سيما الشيخ والمرأة ومن لم يقرأ كتاباً كما أشار إليه صلى الله عليه وسلم . فلو كلفوا العدول عن لغتهم ، والانتقال عن ألسنتهم ، لكان من التكليف بما لا يسعطاق » .

وقال ابن قتيبة في كتاب المشكل « فكان من تيسير الله تعالى أن أمر نبيه صلى الله عليه وسلم بأن يقرئ كل أمة بلغتهم ، وما جرت عليه عاداتهم ، فالهذلي يقرأ « عتي حين » ، والأسدي يقرأ « تعلمون » ، والتميمي يهمز والقريشي لا يهمز ... الخ » .

وليست تلك الحروف السبع التي أجزت قراءة القرآن بها مقصورة على اللهجات العربية ، بل تشمل جميع لهجات المسلمين في جميع بقاع الأرض . فإذا قرأ الهندي المسلم القرآن أما منا ، ولاحظنا بعض الخلافات الصوتية في نطقه وجب ألا ننكر عليه قراءته ، فهي غاية جهده ، ولا يقدر على غيرها .

ويجب ألا تعدو تلك الأحرف النواحي الصوتية ، من اختلاف في مخرج



الصوت ، وتباين في صفته ، بين جهر وهمس أو شدة ورخاوة ، أو تباين في موضع النبر من الكلمة ، أو بمقاييس أصوات اللين إلى غير ذلك من الموضوعات التي يعرض لها علم الأصوات اللغوية ؛ لأن لكل شعب من الشعوب صفات صوتية تميزه عن غيره ، وتكون جزءاً هاماً مما يسميه المحدثون بالعادات الكلامية (١) .

أما الناحية العددية ، في الحديث فليس المراد قصر الأحرف على العدد سبعة ، بل المراد مجرد التعدد ، وهو ما ينسجم مع العقلية السامية . لأن العدد سبعة يعبر عن الكثرة والتعدد في الأساليب السامية .. وقد أشار إلى هذا ابن الجزرى في الجزء الأول من كتابه النشر صفحة ٢٥ ، إذ يقول مانصه « وقيل ليس المراد بالسبعة حقيقة العدد بحيث لا يزيد ولا ينقص ، بل المراد السعة والتيسير وأنه لا حرج عليهم في قراءته بما هو من لغات العرب ، من حيث أن الله تعالى أذن لهم في ذلك . والعرب يطلقون لفظ السبع والسبعين والسبعائة ، ولا يريدون حقيقة العدد بحيث لا يزيد ولا ينقص ؛ بل يريدون الكثرة والمبالغة من غير حصر ، قال تعالى . كمثل حبة أنبقت سبع سنابل . وقال : وإن تستغفر لهم سبعين مرة ... الخ » . . .

أما ما اشتملت عليه القراءات القرآنية ، من صفات صوتية فيمكن إرجاعها إلى بعض اللهجات العربية . وتنتمي هذه الصفات الصوتية إلى أشهر القبائل وأوسعها انتشاراً . لذلك وجدت كل العناية ، بين القراء ، وروعت في القراءات القرآنية ؛ لأنها الصفات التي شاعت في معظم قبائل العرب ، والتي

(١) أنظر كتاب الأصوات اللغوية ، الفصل العاشر ص ١٨٢ .

تأصلت في لهجاتهم ، فجازت القراءة بها تيسيراً على تلك القبائل المشهورة .  
 ولم تشمل القراءات القرآنية ، على كل الصفات الصوتية التي رويت لنا  
 من اللهجات العربية ، لأن بعض تلك الصفات لم تكن من الشيوخ بين القبائل  
 ما استحدثت معه ، في رأى القراء ، أن يقرأ بها ، أو بعبارة أخرى ما استحدثت  
 معه أن تذكر بين القراءات القرآنية المشهورة .

وإذا كان علماء القراءات أنفسهم يعترفون بأن ما روى لنا منها ليس كل  
 القراءات التي قرئ بها في العصور الإسلامية الأولى ، وإنما هي ظرف منها  
 فقط ، فليس من التجنى أن نحكم بأن بعض تلك القراءات التي تنوسيت وأهل  
 أمرها كانت تشمل على صفات صوتية للهجات غير التي رويت لنا في كتب  
 القراءات . . .

فانظر مثلاً إلى ما يقرره ابن الجزرى في كتابه النشر الجزء الأول صفحة ٣٣  
 « فإن القراءات المشهورة اليوم عن السبعة والعشرة والثلاثة عشر بالنسبة إلى  
 ما كان مشهوراً في الأعصار الأول ، قل من كثير ، ونزر من بحر ، فإن من له  
 اطلاع على ذلك يعرف علمه العلم اليقين » . فأروته القراءات القرآنية من  
 صفات اللهجات العربية القديمة ليس إلا المشهور منها ، الكثير الشيوخ الذي  
 تأصل في النطق .

وتلك الصفات الصوتية التي اشتملت عليها القراءات كما نعرفها الآن ، والتي  
 يمكن أن تعزى إلى اختلاف اللهجات العربية هي :

## الفتح والامالة

أجمع علماء العربية على نسبة الفتح لأهل الحجاز ، وعلى أن قبائل نجد قد عرف عنهم الإمامة في كلامهم . ويظهر أن القبائل العربية قبل الإسلام وبعده قد انقسمت إلى شعبتين : الشعبة الاولى تؤثر الفتح ، أو بعبارة أخرى لا تستقيم ألسنتها بغيره ، والشعبة الأخرى قد شاعت فيها الإمامة .

ويمكن بصفة عامة أن تنسب الفتح إلى جميع القبائل التي كانت مساكنها غربي الجزيرة بما في ذلك قبائل الحجاز أمثال قريش والأنصار وثقيف وهوازن وسعد بن بكر وكنانة ، وأن تنسب الإمامة إلى جميع القبائل الذين عاشوا في وسط الجزيرة وشرقيها ، وأشهرها تميم وأسد وطيب ، وبكر بن وائل وعبد القيس وتغلب .

والقبائل التي كثر انتشارها في أمصار العراق بعد الفتح الاسلامي ، تكاد تنحصر في الشعبة الثانية . وقد اتخذ علماء الكوفة والبصرة مثلهم من القبائل التي انتشرت في تلك الأصقاع ، أو تعودت النزوح إليها . وقد حدثنا تاريخ الهجرات القبلية ، رغم غموضه ، بأن أشهر القبائل التي أثرت في بيئة الكوفة والبصرة ، هي قبائل وسط الجزيرة وشرقيها . فعن معظمهم أخذ علماء الكوفة والبصرة ، وبهم اقتدوا .

فلا غرابة إذن أن نرى الإمامة شائعة في القراءات القرآنية ، التي انتظمت  
البيئة العراقية في القرن الثاني الهجري .

وأشهر من روى عنهم الإمامة من القراء العشرة هم :  
حمزة الذي توفي سنة ١٥٦ هـ . وكان إمام القراء في الكوفة .  
الكسائي الذي توفي سنة ١٨٩ هـ . وورث إمامة القراءات بالكوفة  
بعد حمزة .

خلف الذي توفي سنة ٢٢٩ هـ . بالكوفة أيضاً .  
فأئمة القراءة الذين اشتهر عنهم الإمامة كوفيون ، أي تأثروا بتلك القبائل  
التي أقامت بالعراق ، أو تعودت النزوح إليه وهي قبائل قريبة مساكنها من  
العراق ، وعرفت لهجاتها بالإمامة .  
وقد كان من المتوقع أن يشمل هذا التأثير بيئة البصرة أيضاً ، فنلاحظ الإمامة  
بين قرائها أمثال :

أبي عمرو بن العلاء الذي توفي سنة ١٥٤ هـ .  
ويعقوب الذي ورثه في إمامة القراءات بالبصرة والذي توفي سنة ٢٠٥ هـ .  
ولكن الذي قد يدعو إلى الدهشة أن قراءة أبي عمرو وتلميذه يعقوب لم تنصر  
للإمامة إلا في مواضع خاصة نصت عليها كتب القراءات .  
ولعل الصراع العلمي الذي كان بين الكوفة والبصرة هو الذي دعا إلى  
هذه المغايرة ، وإلى أن تتخذ البصرة طريق الفتوح في معظم المواضع ، حتى لا تشبه  
الكوفة في إمامتها .

كذلك قد يبدو من الغريب أن نرى بين علماء الكوفة أمثال عاصم الذي

توفي سنة ١٢٧ هـ . والذي أخذ عنه حفص تلك القراءة المشهورة الآن بالبلاد العربية ، والتي تكاد تخلو من الإمالة !

ولكننا حين نذكر أن عاصما كان أسبق علماء الكوفة في فن القراءات ، وأنه عاش قبل أن يشتد التنافس بين مدرستي البصرة والكوفة ، نستطيع بسهولة أن نتصور أن عاصما في قراءته قد تأثر ببيئة غير بيئته ، كالبيئة الحجازية مثلا . وبعض القراء في قليل من الأحيان يؤثرون القراءة التي تغاير اللهجة الشائعة بين ظهرائهم ، فلعل عاصما كان أحد هؤلاء .

نخلص من كل هذا إلى أن الإمالة كانت الصفة الشائعة بين قبائل وسط الجزيرة وشرقها ، وإلى أنها شاعت بعد الإسلام في اللهجات العربية ببلاد العراق . ومما قد يؤيد ما نذهب إليه أن الكسائي مثل مرة « إنك تميل ما قبل هاء التانيث ، فقال هذا طباع العربية » . وقد عقب على قول الكسائي أبو عمرو الداني في كتابه التيسير فقال « إن الكسائي أراد بذلك أن الإمالة لغة أهل الكوفة ، وهي باقية فيهم إلى الآن ، وهم بقية أبناء العرب » . أي أن الإمالة ظلت شائعة بين أهل الكوفة حتى عهد أبي عمرو الداني في أوائل القرن الخامس الهجري ، ولعلها باقية فيهم حتى أيامنا هذه .

بقي أن نشرح معنى الفتح والإمالة كما يراها المحدثون من علماء الأصوات اللغوية .

الفتح والإمالة صوتان من أصوات اللين ، سواء كانا قصيرين أو طويلين . وأصوات اللين القصيرة في الاصطلاح الحديث هي ما كان يسميه القدماء بالحركات ، أما أصوات اللين الطويلة فهي ما كانوا يسمونه بألف المد وياء المد

وواو المد . ولا فرق بين القصيرة والطويلة إلا في السكينة . فمخرج الفتحة ووضع اللسان معها هو نفسه مخرج ألف المد ووضع اللسان معها ، والفرق بينهما فرق في السكينة . وكذلك الكسرة وياء المد متماثلتان في المخرج ووضع اللسان ، كما أن الضمة وواو المد متماثلتان فيها أيضاً .

فلا فرق إذن بين أن تمال الفتحة أو تمال ألف المد ، لأن العملية العضلية في الحالتين واحدة .

وقد وضع المحدثون مقياس<sup>(١)</sup> مشهورة لأصوات اللين يعرض لها بالتفصيل علم الأصوات اللغوية . وما سماه القدماء بالفتح هو أحد تلك المقاييس ، وما سموه بالإمالة مقياس آخر منها .

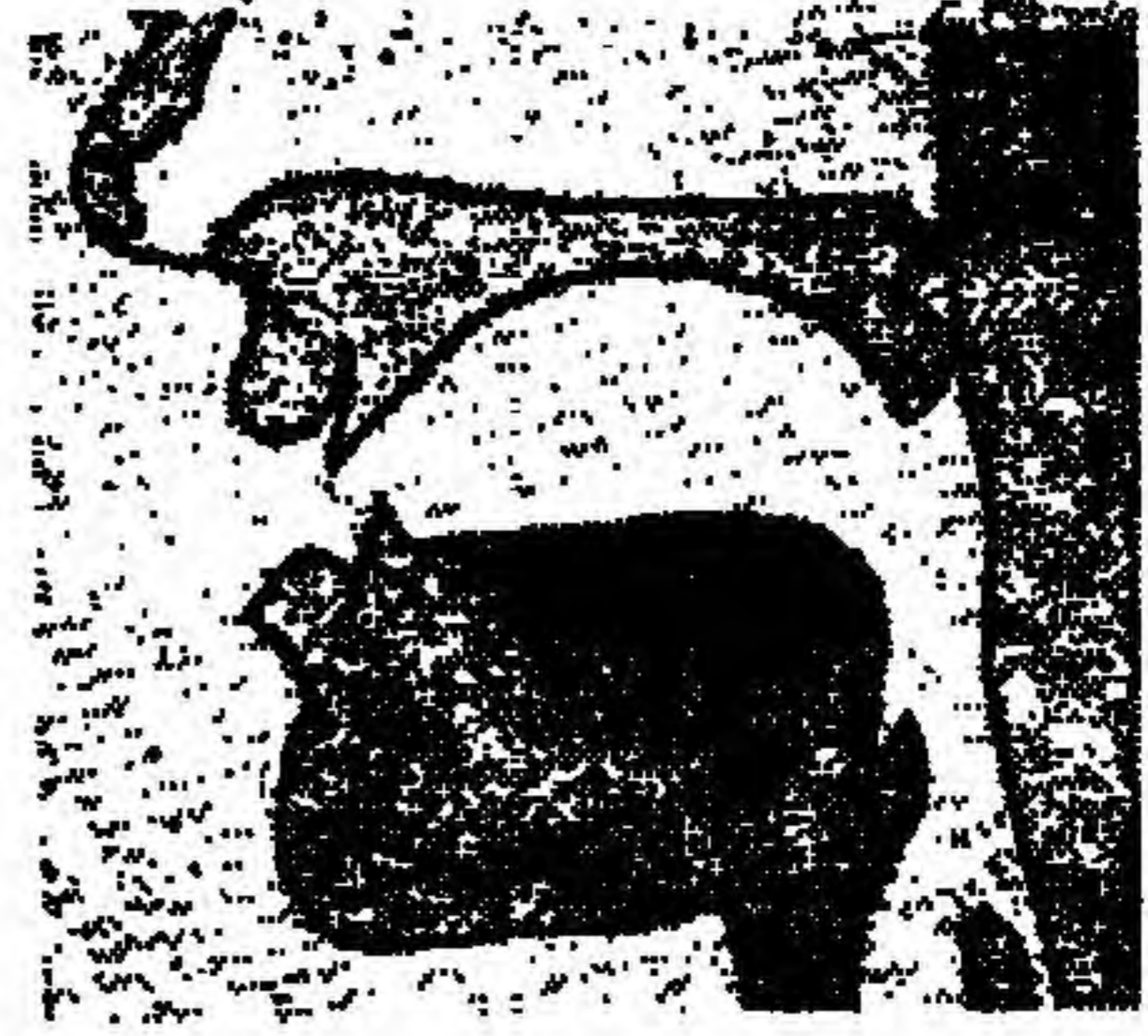
واللسان مع الفتح يكاد يكون مستويا في قاع الفم ، فإذا أخذ في الصعود نحو الحنك الأعلى بدأ حينئذ ذلك الوضع الذي يسمى بالإمالة . وأقصى ما يصل إليه اللسان في صعوده نحو الحنك الأعلى ، هو ذلك المقياس الذي يسمى عادة بالكسرة ، طويلة كانت أو قصيرة . فهناك إذن مراحل بين الفتح والكسر ، لا مرحلة واحدة . من أجل ذلك كان القدماء يقسمون الإمالة إلى نوعين : إمالة خفيفة وإمالة شديدة .

انظر الشككين الآتيين اللذين يوضحان وضع اللسان في حالتى الفتح والكسر .

(١) انظر كتاب الأصوات اللغوية ص ٣٠ .



(شكل ٢) الكسر



(شكل ١) الفتح

فنحن نرى في الشكل الأول أقصى ما يصل إليه اللسان في هبوطه نحو قاع الفم لتتكون تلك الفتحة المفخمة المعروفة لنا .

وفي الشكل الثاني نرى أقصى ما يصل إليه اللسان في صعوده نحو الحنك الأعلى لتتكون تلك الكسرة المرققة . وبين هذين الوضعين للسان تتكون المراحل الثلاثة الآتية :

فتحة مرققة ، إمالة خفيفة ، إمالة شديدة

وبهذا نرى أن الفرق بين صاحب الفتح وصاحب الإمالة ليس إلا اختلافاً في وضع اللسان مع كل منهما ، حين النطق بهذين الصوتين . واللسان في حالة الإمالة أقرب إلى الحنك الأعلى منه في حالة الفتح .

ولقد اضطرت أقوال الأقدمين في شرح أسباب الإمالة حين حاولوا أن يضعوا لها قواعد وقوانين ، كما اختلفوا في الحكم على أيهما الأصل : الفتح أم الإمالة ؟

ونحن حين نستعرض أمثلة الإمالة وأحوالها نراها تنقسم إلى نوعين مختلفين :

١ — صوت لين خالص تكون من صوت لين مركب يسميه المحدثون  
Diphthong

٢ — تغير في مقياس صوت من أصوات اللين .

ونلاحظ الحالة الأولى حين يكون صوت اللين طويلاً ، ومنقلباً عن أصل من  
أصول الكلمة ، يائياً كان أو واوياً . ففي مثل الفعلين « باع ، قال » يظهر أنه  
قد أتى عليهما حين من الدهر كان ينطق بهما .

بَيْعَ ، قَوْلَ

ثم تطور الصوت الأول « ai » إلى e: والصوت الثاني « au » إلى o:  
أي أن فتحة فاء الكلمة في الفعل الأول قد أميلت إلى الكسرة ، وأنها في  
الفعل الثاني قد أميلت إلى الضمة .

فهناك إمالة في الحالين ، فكما يمال الفتح إلى الكسر قد يمال أيضاً إلى  
الضم . ولكن القراء في إمالتهم لم يعنوا إلا بالإمالة الأولى ، وهي الفتح إلى  
الكسر لأنها أكثر شيوعاً وانتشاراً وظهوراً بين القبائل العربية المشهورة .  
أما إمالة الفتح إلى الضم فقد ظلت مهملة يشار إليها أحياناً في بعض المطولات  
من كتب اللغة على أنها لهجة لبعض القبائل ، دون نسبتها إلى قبيلة خاصة .  
فقد أشار إليها ابن جني في كتابه « سر صناعة الإعراب » ، وعلل بها كتابة  
الصلاة والزكاة وأمثالهما في الخط العثماني بالواو .

ونحن في مثل هذه العجالة لا نستطيع أن نرجح نسبة هذه اللهجة إلى قبيلة  
من القبائل العربية ، غير أننا نلاحظ وجودها في بعض اللهجات الحديثة .



وهناك نوعان آخران من الإمالة رواهما ابن جنى في كتابه الآنف  
الذكر وهما :

١ - الكسرة المشوبة بالضممة ، وهي تلك التي في صيغ البناء للمجهول ،  
والتي عبر عنها القدماء من النجاة بالإشمام في مثل قيل ، بيع . وقد قرأ بهذه  
اللهجة الكسائي وهشام في [ قيل . غيض . جيء . حيل . سيق . سيء ] .  
٢ - الضمة المشوبة بالكسرة ، كأن يقال بمثل « بوع » نحو الكسرة .  
وهذه اللهجة أقل اللهجات شهرة وشيوعا ، وإن رويت بين لهجات الغرب .

فالإمالة كما ترى أنواع أربعة ، أشهرها إمالة الفتح إلى الكسر . وهذا  
النوع هو المراد بالإمالة حين تطلق في كتب القراءات واللغة . وعلى هذا إذا  
قيل لنا إن من أسباب إمالة ألف المدّ كون أصلها ياء ، كما في « باع » ، وجب  
أن نفهم من هذا أن الأصل الياء قد تطور أولا إلى الإمالة ، ثم تطورت الإمالة  
إلى الفتح ، أي أن المراحل التي مرّ فيها مثل هذا الفعل « باع » هي :

( يبيع ) ثم ( إمالة ) ثم ( فتح )

فالصوت للركب اه قد تطور أولا إلى e ثم إلى a .

تلك هي المراحل التي تبرزها القوانين الصوتية ، والتي لها نظائر في اللغات  
الأخرى . ولذلك نستطيع أن نرجح أن بعض الكلمات العربية التي اشتوت  
على ياء أصلية قد تطورت أولا إلى الإمالة ثم إلى الفتح . فالأصل إذن في مثل  
هذه الكلمات هو الإمالة ، وقد تفرع الفتح عنها .

ونستنبط من هذا أن قبائل الحجاز التي عرف عنها الفتح قد قطعت مرحلة  
أخرى في تطور لهجاتها ، إذ انتقلت من الإمالة إلى الفتح ، كما نستنبط أن

انعزال بعض القبائل في وسط الجزيرة وشرقها قد سبب احتفاظها بمزجاة الإمالة التي هي أقدم حين تكون الياء أصلية في الكلمات .

وانتقال الإمالة إلى الفتح ليس له ما يبرره سوى الاقتصاد في الجهد العضلي ، والميل إلى السهولة التي يلجأ إليها الإنسان في معظم ظواهره الاجتماعية .

أما حين تعرض الإمالة لغير أصل من أصول الكلمة كإمالة الفتححة ، أو إمالة ألف المد غير المنقلبة عن أصل ، فليس هذا إلا نوعاً من الانسجام بين أصوات اللين . لذلك جعل القدماء من أسباب الإمالة وجود كسرة ، سواء كانت سابقة أو لاحقة . ولا شك أن الانتقال من الكسر إلى الفتح أو بالعكس ، يتطلب مجهوداً عضلياً أكبر مما لو انسجمت أصوات اللين بعضها مع بعض ، بأن تصبح متشابهة . لأن حركة الإمالة أقرب إلى الكسرة منها إلى الفتححة . [ انظر الشكلين صفحة ٤٥ ] .

ومتى سلمنا بنظرية السهولة والاقتصاد في الجهد العضلي ، استطعنا أن نتصور أن الكلمة التي تشتمل على أصوات لين منسجمة ، أحدثت من نظيرتها التي خلت أصوات لينها من الانسجام . ونستطيع لهذا أن نقول إن كلمة « كتاب » كما ينطق بها بغير إمالة أقدم في نسجها منها مع الإمالة .

وقد خلط القدماء بين عنصرين رئيسيين من الكلمات : تلك التي اشتملت على أصل يائي ، وبين التي رويت بالإمالة دون أن يكون مبعث الإمالة فيها تضمنها أصلاً يائياً .

فإمالة الفتح إلى الكسر يجب في الحقيقة أن تعزى بصفة عامة إلى أحد عاملين :

١ - الأصل اليائى .

٢ - الانسجام بين أصوات اللين .

وليس يقتصر أثر العامل الثانى على الإمالة من الفتح إلى الكسر ، بل يمكن أن يعزى إليه أيضا الانتقال من الكسر إلى الفتح ، كما فى تلك الأفعال الثلاثية التى رويت لنا مرة بمثل « فرح » وأخرى مثل « فتح » ، كالفعل [ حسب ، حسب ] . فى هذه الحالة يمكن أن يقال إن « حسب » أقدم وأسبق وقد تطورت إلى « حسب » ، ليتحقق الانسجام بين أصوات اللين .

ويلعب الانسجام بين أصوات اللين دورا هاما فى معظم لغات البشر . وهو من التطورات الحديثة ، التى تميل إليها اللغات بصفة عامة . وقد اعترف به القدماء من علماء العربية ، وسموه فى باب الإمالة بالتناسب ، ثم سموه فى بعض أبواب الإعراب « بحركات الاتباع » وتأولوا عليه قولهم « جحر ضب خرب » . بل إن حركة الاتباع قد اعترف بها بعض القراء ، فرووها فى بعض القراءات القرآنية ، فقد قرئ : [ بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين ] .

أما قواعد النجاة فى باب الإمالة فيمكن إرجاعها جميعا إلى العاملين الرئيسيين اللذين أشرنا إليهما هنا ، غير أنه من الصعب مع هذا أن نبرر من الناحية الصوتية ، ما زعمه النجاة من جواز الإمالة فيما أصله واو مثل [ خاف ، مغزى ] ، لأن الإمالة فى مثل هذه الحالة كان حتما أن تكون من الفتح إلى الضم ، لا من الفتح إلى الكسر . على أن النجاة قد اختلفوا فى الحكم على إمالة أمثال [ خاف ، مغزى ] فأنكرها بعضهم أمثال أبى العباس ، فقد روى

عنه أن قال إن إمالة ما كان من ذوات الواو على ثلاثة أحزف نحو [دعا ، غزا] قبيحة إلا إذا كان هناك ما يبررها ككسرة تسبق ألف اللد كما في إمالة «ربا» التي قرأ بها الكسائي وحمة .

هذا ولا نستطيع أن نتصور كيف جعل النحاة الإمالة ، من الأمور الجائزة ! لقد قرروا أن كل ممال يجوز فتحه ! ولو صخ هذا القول لأمكن أن نتصور أن من القبائل من كانوا يميلون ويفتحون كما تشاء لهم أهواؤهم ، وذلك أمر لا يقبله اللغوي الحديث ؛ إذ ليس الأمر أمر مواضعة مقصودة متعمدة ، وإنما هو عادة لكل قبيلة . فتلك التي تميل لا تستطيع غير الإمالة ، وتلك التي تفتح لا تطاوعها ألسنتها بغير الفتح . فالمسألة لا تعدو أن تكون عادة ككل العادات اللغوية ، يتوارثها الخلف عن السلف دون شعور بها . فكان واجب النحاة أن يقولوا إن الإمالة لا مفر منها عند تلك القبيلة التي تميل في كلامها ، والفتح واجب عند من لا يستطيعون غيره كعظم الحجازيين . أما إذا كان النحاة قد أرادوا بمجواز الإمالة أنه يجوز لنا الآن حين نقرأ القرآن الإمالة أو الفتح ، فهذا أمر آخر لا نعرض له هنا بشيء .

ولا تزال الإمالة شائعة في كثير من اللهجات العربية الحديثة ، ولن تتم معرفتنا بقواعد الإمالة وأصولها في العصور الإسلامية الأولى إلا بالاستعانة بقواعدها وأصولها في اللهجات الحديثة حين تدرس دراسة علمية كافية ، وهو ما نرجو أن تتكفل به بحوث المستقبل .

- ٢ -

## الادغام

تؤثر هنا استعمال هذا الاصطلاح القديم ، ونعني به ما يشير إليه المحدثون عن تأثير الأصوات بعضها ببعض حين تتجاور . ويسمى المحدثون هذه الظاهرة اللغوية Assimilation . ولقد أطلقت عليها في كتاب الأصوات اللغوية كلمة «المائلة» ، لأن شرط تأثير الأصوات المتجاورة بعضها ببعض أن تكون متشابهة في المخرج أو الصفة . فإذا اجتمع صوتان متماثلان كل المائلة أو بعضها ترتب على هذا أن يؤثر أحد الصوتين في الآخر تأثيراً مختلف نسبته تبعاً للظروف اللغوية الخاصة بلغة من اللغات .

ويقسم المحدثون تأثير الأصوات إلى نوعين :

١ - رجعي Regressive وفيه يتأثر الصوت الأول بالثاني .

٢ - تقدمي Progressive وفيه يتأثر الصوت الثاني بالأول .

وتختلف اللهجات في الخضوع لنوع من هذين النوعين . فمن اللهجات ما يؤثر النوع الأول كاللهجات الفرنسية ، ومنها ما يلتزم النوع الثاني كاللهجات الإنجليزية .

وقد اشتملت اللغة العربية على هذين النوعين من التأثير ، وإن كان النوع الأول هو الأكثر شيوعاً فيها .

ولم يعرض القراء في كتبهم إلا للنوع الأول ، أي للتأثر الرجعي ، وهو

الذي فيه يتأثر الصوت الأول بالثاني تأثيراً كاملاً يترتب عليه أن يفنى الصوت الأول في الثاني بحيث ينطق بالصوتين صوتاً واحداً كالثاني .

وقد سموا هذا التأثير في كتبهم بالإدغام ، ثم قسموا الإدغام إلى كبير ، وهو الذي فيه يفصل بين الصوتين الساكنين صوت لين قصير ( أى حركة ) . وقد نسبت هذا الإدغام إلى أبي عمرو بن العلاء أخذ القراء السبعة . وهذا النوع من الإدغام يتطلب عمليات صوتية معقدة قبل أن يتحقق ، فضلاً عن أنه لم ينسب إلى قبيلة خاصة عرفت به وآثرته في نطقها . لهذا تؤثر تركه لقن القراءات لأننا لا نعرف لهجة من اللهجات العربية قد اشتهرت بهذا النوع من التأثير .  
أما النوع الثاني للإدغام عند القراء فهو الإدغام الصغير ، وفيه يتجاوز الضوتان الساكنان ، دون فاصل من أصوات اللين . وهو الذي شاع في معظم اللغات ، لأن شرط تأثير صوت بآخر هو التقاؤهما التقاء مباشراً .

والذي عرف في القراءات هو تأثير الصوت الأول بالثاني تأثيراً تاماً بحيث ينطق بالصوتين صوتاً واحداً كالثاني ، وهو ما يعبر عنه عادة بالإدغام .

وقد روت كتب القراءات أمثلة من القرآن الكريم لهذا الإدغام يمكن أن تلخص فيما يلي (١) :

- ١ — تدغم الباء في الميم والفاء .
- ٢ — تدغم التاء في الثاء . الجيم . الظاء . السين . الصاد . الزاي .
- ٣ — تدغم الثاء في الذال . التاء . السين . الشين . الضاد .

(١) أنظر كتاب الأصوات اللغوية ص ١٦٦ .

٤ — تدغم الدال في الذال . الظاء . الضاد . الجيم . الشين . السين . الزاي .  
الصاد . الثاء .

٥ — تدغم الذال في الثاء . الدال . الجيم . السين . الزاي . الصاد .

٦ — تدغم الراء في اللام فقط .

٧ — تدغم القاء في الباء فقط .

٨ — تدغم اللام في الراء . الظاء . الثاء . الزاي . السين . الضاد . الطاء .

الظاء . النون . الدال .

تلك هي الحالات التي اختلف فيها القراء ، فمنهم من أدغم في كل الحالات السابقة ، ومنهم من أظهر فيها جميعاً ، وقليل من القراء من آثروا الادغام في بعضها والاظهار في البعض الآخر .

أما أحكام النون والميم فليست محلاً لخلاف بين جمهور القراء ، لهذا نعدها بصفة عامة من الظواهر التي شاعت في كل اللهجات العربية القديمة ، ولم تختص بها لهجة دون أخرى .

وإذا استعرضنا آراء القراء في إدغام الأمثلة القرآنية أو إظهارها وجدناهم طائفتين :

١ — منهم من يؤثرون الادغام وهم أبو عمرو . والكسائي . وحمزة . وابن عامر . وخلف ، وإن اختلفت النسبة بينهم .

٢ — أما الذين يؤثرون الإظهار فهم ابن كثير . وبنافع . وأبو جعفر . وعاصم . ويعقوب ، بنسب مختلفة أيضاً .

فمن أخذ هؤلاء هؤلاء؟ وبأي القبائل تأثروا في ميلهم للادغام أو الإظهار؟

الحق أن الإجابة عن مثل هذا التساؤل ليس بالأمر الهين اليسير، لأن أصحاب الإدغام ليسوا جميعاً من بيثة واحدة، فمنهم الكوفي كالكسائي وحمزة وخلف، ومنهم البصري كأبي عمرو، ومنهم الشافعي كأبن عامر. كذلك أصحاب الإظهار ليسوا من بيثة واحدة، فمنهم الكوفي كعاصم، والبصري كيعقوب، غير أنه من الممكن أن نعزو الإدغام بصفة عامة إلى البيثة العراقية، والإظهار بصفة عامة إلى البيثة الحجازية.

وقد ظهر لنا حين التحدث عن الإمالة أن «عاصم» قد خالف بيثته في الميل إلى الفتح فلا غرابة أن يخالف بيثته هنا أيضاً. أما ميل ابن عامر لأصحاب الإدغام، وميل يعقوب لأصحاب الإظهار فمن الصعب تعليقه.

نستطيع بعد هذا أن نستنبط أن القبائل التي آثرت في البيثة العراقية كانت تميل لهجتها بوجه عام إلى الإدغام، وأن قبائل الحجاز كانت تميل إلى الإظهار. وقد عرفنا من قبل أن البيثة العراقية قد تأثرت بقبائل وسط الجزيرة وشرقها. وعلى هذا فيمكن الحكم على أن القبائل التي عرفت بالإدغام هي:

تميم . طيء . أسد . بكر بن وائل . تغلب . عبد القيس .

وأن القبائل التي آثرت الإظهار هي :

قريش . ثقيف . كنانة . الأنصار . هذيل .

فالقبائل العربية إذن قد انقسمت إلى طائفتين : الأولى تؤثر الإدغام، والأخرى تؤثر الإظهار.

وقد يلقي ضوءاً على هذا التقسيم ما أجمعت عليه الروايات اللغوية من أن «تيمياً» التي اتخذت دائماً مثلاً لقبائل وسط الجزيرة، كانت تؤثر إدغام.



المثلين في مثل « لم يحل » ، في حين أن الحجازيين كانوا يقولون « لم يحلل » .  
وقد جاء القرآن الكريم غالباً بلهجة الحجازيين نحو [ إن تمسككم حسنة ]  
ونحو [ من يحلل عليه غضبي ] ونحو [ واغضض من صوتك ] ونحو [ ولا تمن  
تستكثر ] ، وقد ورد في التنزيل على لهجة تميم [ ومن يرتد ] ونحو [ ومن  
يشاق الله ] (١) .

كذلك مما قد يلقي ضوءاً على هذا التقسيم ما روته كتب القراءات من أن  
حزة والكسائي وخلفا ، كانوا يقرءون [ أصدق ، تصديق ، يصدقون ، فاصدع ،  
قصد ، يصدر ] وما أشبه ذلك مما سكنت فيه الصاد وأتى بعدها دال ، كانوا  
يقرأون هذه الأمثلة بأشمام الصاد صوت الزاي . ومعنى إشمام الصاد صوت الزاي  
أن ينطق بها ظاء كتلك التي نسمعها من أفوام العوام في مصر أي أن تكون  
ظاء غير لثوية .

والسر في مثل هذا النطق هو مجاورة الصاد التي هي صوت مهموس للدال  
التي هي صوت مجهور ، فتأثر الصوت الأول بالثاني ، وأصبح مجهوراً مثله ، وحين  
نجهر بالصاد تصبح تلك الطاء للعرفوة بين العوام في مصر ، بل هي شائعة بين  
معظم الخاصة الآن في بلادنا إذ ينطقون بالطاء غير لثوية .

فنحن نلاحظ في هذه الأمثلة ميل بعض القراء إلى تأثر الصوت الأول بالثاني  
وإن لم يبلغ التأثير حد الادغام .

وإذا علمنا أن حزة والكسائي وخلفا ، ممن ينتهون إلى البيئة العراقية ،  
استطعنا أن ندرك بسهولة أن تأثير الأصوات المتجاورة بعضها ببعض ، قد شاع في

(١) ( ومن يرتد ) في سورة المائدة ، ( ومن يشاق ) في سورة الحفر .

هذه البيئة أكثر من غيرها ، لأن القراء من البيئة الحجازية يقرأون هذه الأمثلة بالصاد الخالصة . بل لقد جاء في بعض الروايات أن ظاهرة إشمام البصا الزاى كانت شائعة في قبيلة طيء ، وهو ما يؤيد ما نذهب إليه .

نستنتج إذن أن الحجازيين بوجه عام كانوا يلتزمون الإظهار ، ويحترزون من تأثير الأصوات المتجاورة بعضها ببعض ، وهذا لا يتأتى إلا بمراعاة الدقة في النطق والتأني والتؤدة في الأداء ، بحيث يظهرون كل صوت ، ويعطونه حقه من جهر وهمس أو شدة ورخاوة .

وليس ينقض هذا الحكم ما عرف عن الحجازيين من عدم الهمز ، لأن للهمزة حكماً خاصاً يخالف كل أصوات اللغة ، مما سنعرض له فيما بعد .

ونشتمل اللهجات العربية الحديثة على طائفتين :

أولئك الذين يؤثرون الادغام ، والذين يؤثرون الاظهار . فهل الأولون من نسل تلك القبائل التي كانت تؤثر الادغام في العصور الاسلامية الأولى ، أو على الأقل ممن تأثروا بهم ؟

— ٣ —

الهمز

تروى كتب الأدب أن أنجد الرواة سأل رجلاً من قريش قائلاً « أتمهمز الفأرة ؟ » ، فلم يفتن المستول لما أراد البائل وأجاب ساخراً « إنما يهمزها الفأر » !

وقد أراد اللغوي أن يعرف ما إذا كان القرشيون يلتزمون بتحقيق الهمزة في كلامهم .

وتكاد تجمع الروايات على أن التزام الهمز وتحقيقه من خصائص قبيلة تميم ، في حين أن القرشيين يتخلصون منها بحذفها أو تسهيلها أو قلبها إلى حرف مد . على أنه قد روي أيضاً أن بعضاً من تميم يقلبون الهمزة الساكنة إلى صوت لين من جنس حركة ما قبلها فيقولون في :

رأس . بر . لوم

على الترتيب :

راس . بير . لوم

ويضيق المقام هنا عن تفصيل أحكام الهمزة كما روتها كتب القراءات ، فقد فصلت لها أبواب مستفيضة حين تكون منفردة ، وحين تجتمع همزتان . ولقد تعرضت الروايات القرآنية لكل مثل منها في القرآن الكريم ونسبت حكم الهمزة فيه من تحقيق أو غيره إلى بعض القراء .

ولا يكاد المرء يصل إلى حكم خاص يمكن نسبته إلى بيئة معينة ، نظراً لاختلاف القراء في أحكام الهمزة اختلافاً يطول شرحه . غير أننا نلاحظ بوجه عام أن كتب القراءات تكاد تجمع على أن أبا جعفر وناهماً من رواية ورش ، قد تخلصا من تحقيق الهمزة . ولا غرابة في ذلك فهما أشهر قراء المدينة ، ومن البيئة الحجازية التي اشتهر عنها عدم الهمز .

ولو أن ابن كثير اشترك معهما في تلك الصفة لاستطعنا بسهولة أن نحكم على

أن القراء قد التزموا ما عرف عن يديهم من الهمز أو عدمه . ولكن كما قررنا :  
 آنفاً قد خالف بعض القراء أحياناً في قراءاتهم صفات اللهجات التي شاعت بين  
 ظهرائهم . ولئن خالف ابن كثير في تسهيل الهمز وما إلى تحقيقه وهو مني ، لقد  
 خالف عاصم في الإمالة والادغام رغم أنه كوفي .

نستطيع إذن أن نرجح تلك الروايات التي نسبت تحقيق الهمزة لتيم وغيرهم  
 من قبائل وسط الجزيرة وشرقيها ، وأن تنسب التخلص من الهمزة لمعظم  
 البيئة الحجازية .

بقي أمر لا بد من علاجه هنا ، وهو كيف تأتي أن البيئة الحجازية التي  
 عرفت بالتأني في الأداء ، ولم يشتهر عنها إدغام أو إمالة ، أن تعمل على التخلص  
 من الهمزة في نطقها ؟ إذ التخلص من الهمزة نوع من الميل إلى السهولة والبعد  
 عن التزام التحقيق في النطق بالأصوات .

الحق أن التخلص من الهمزة لم يكن شائعاً في كل القبائل الحجازية ، بل  
 منها من كانوا يؤثرون تحقيقها . ويدل على هذا قراءة ابن كثير الذي التزم تحقيق  
 الهمزة . هذا إلى أن الهمزة حكماً خاصاً يخالف جميع الأصوات الأخرى ، لأنها  
 صوت ليس بالجمهور ولا المهموس ، وهي أكثر الأصوات الساكنة شدة ، وعملية  
 النطق بها وهي محققة من أشق العمليات الصوتية ، لأن مخرجها فتحة المزمار التي  
 تنطبق عند النطق بها ثم تنفتح فجأة ، فتسمع ذلك الصوت الانفجاري التي نسميه  
 بالهمزة المحققة .

لهذا مالت كل اللهجات السامية إلى التخلص منها في النطق . فليس غريباً

أن يتخلص منها أيضاً معظم الحجازيين ، وإنما الغريب أن يحقها قراء البيئته العراقية الذين عرف عنهم الميل إلى التسهيل من إدغام وإمالة على أن اللهجات لا تلتزم دائماً حالة واحدة في كل صفاتها ، بل أحياناً تخرج عن تلك الظاهرة التي اختضت بها ، لظروف لغوية خاصة ، وخيئذ يكون واجب الباحث المدقق الكشف عن تلك الظروف الخاصة . وإذا نظرنا إلى اللهجات على أنها من المظاهر الاجتماعية ، وأنها تخضع في قواعدها وأصولها لظروف المجتمع والبيئة ، لم يقلقنا وجود ظاهرة لغوية قد تبدو غريبة أو شاذة عما عرفنا عن لهجة من اللهجات .

فليست القوانين التي تخضع لها اللهجات كالقوانين الطبيعية في السكون ، تلتزم حالة واحدة لا شذوذ فيها ، بل يكتفي اللغوي عادة حين يحكم على صفات لهجة من اللهجات بالحكم على الكثرة الغالبة من صفاتها .

على أنه من الممكن أن تنسب تحقيق الهمزة إلى اللغة الأدبية النودجية التي أشرنا إليها آنفاً ، لغة الخاصة التي كانت تلتزم في الخطب والشعر ، وعلى هذا فليس تحقيق الهمزة من صفات اللهجات العربية التي نريد أن نعرض لها هنا .

أما كيف تخلعت لهجات الحجاز من الهمزة فيمتضح مما روى عن قراءة أبي جعفر ونافع التي يمكن أن تلخص فيما يلي :

١ — إذا سكنت الهمزة وتحرك ما قبلها قلبت حرف مد مناسب لتلك الحركة مثل :

يؤمنون . . . بس . . . فأذنوا

قرئت على الترتيب :

يومنون . بيس . فاذنوا

ب - الهمزة المتحركة وقبلها متحرك لها الأحوال الآتية :

١ - أن تكون الهمزة مفتوحة وقبلها ضم ، ويغلب في هذه الحالة أن تبدل

الهمزة واوا مثل :

يؤاخذ . الفؤاد . هزؤا

قرئت على الترتيب :

٢ - أن تكون الهمزة مفتوحة . وقبلها مكسور ، وحينئذ تبدل الهمزة

ياء مثل :

رئاء الناس . خاسئا

قرئتا على الترتيب :

رياء الناس . خاسيا

٣ - أن تكون الهمزة مضمومة وقبلها كسر وبعدها واو ، وحينئذ تحذف

الهمزة ويضم ما قبلها ليقاسب الواو مثل :

« مستهزئون » قرئت « مستهزون »

٤ - أن تكون مضمومة وقبلها فتح ، وحينئذ تحذف الهمزة مثل :

« ولا يطؤون » قرئت « ولا يظوون »

٥ - أن تكون مكسورة بعد كسر ، وحينئذ تحذف الهمزة مثل :

« متكئين » قرئت « متكين »

٦ — أن تكون الهمزة مفتوحة بعد فتح ، وحينئذ تسهل الهمزة بين بين <sup>(١)</sup> مثل :

أزأيقتكم

٧ — الهمزة للتحركة وسكن ما قبلها ، تنقل حركة الهمزة إلى الساكن قبلها ، وتحذف الهمزة سواء كان هذا في كلمة واحدة أو كلمتين مثل :

« والأخرى » قرئت « ونخرى »

« من إله » « من آه »

وقد اشتهرت هذه القراءة عن ورش القارىء المصرى الذى تعلم فى المدينة .

(١) أنظر كتاب الأصوات النوية ص ٧٨ .

## الفصل الرابع

### عناصر اللهجات العربية وقبائلها

روت كتب اللغة والأدب مما ألف القدماء من علماء العربية ، صفات عدة للهجات القديمة ، ونسبت بعضها منها إلى قبائل معينة ، والبعض الآخر اكتفت بالإشارة إليه على أنه مما كانت تقوله العرب .

وقد تناثرت تلك الروايات في ثنايا الكتب ، وفي مناسبات شتى ، فأحيانا نراها في جدل النحاة حين تعرض مسألة نحوية ، ويحاول بعض النحاة تخريجها على رأى قبيلة خاصة ، والبعض الآخر يتأولونها على رأى آخر روى عن قبيلة أخرى ، وكل من الفريقين يستمسك برأيه ويتعصب له . وقد نجد الإشارة لبعض اللهجات في الروايات الأدبية ، أو حين نتحدث عن قبيلة من القبائل العربية .

ولا بد للاحاطة بكل ما روى عن لهجات القبائل العربية من البحث والتنقيب في بطون المؤلفات القديمة ، وجمع كل ما يمكن جمعه ، ثم ترتيبه وتبويبه والعمل على تحقيق تلك الروايات وإخراج الزائف منها .

ولسنا ندعى هنا أننا قد أحطنا بكل تلك الروايات كما رويت في المؤلفات



القديمة، وإنما نرى إلى علاج ما اشتهر من تلك الصفات علاجاً علمياً يكشف الطريق أمام طالب اللغة العربية في بحوثه المستقبلية. وعلى هذا فسنعرض هنا لأشهر ما روى عن اللهجات العربية القديمة من صفات.

— ١ —

## ما يتعلق بالاعراب

روى النجاة في المطولات من كتبهم عدة مسائل اختلف فيها الرأي بينهم. وقد نسبوا هذا الخلاف الإعرابي إلى قبائل معينة على أنها لهجاتهم وما تستطيعه ألسنتهم.

ويمكن أن نلخص تلك المسائل فيما يلي :

١ — ينصب الحجازيون خير ليس مطلقاً، ولكن بنى تميم يرفعونه إذا اقترن « ياإلا » حملاً لها على « ما » .

ثم يروى النجاة لهذا قصصاً ليس مصدرها في الحقيقة إلا الصراع العلمي بين طائفتين منهم. فقد زعموا أن الأصمى قال : « كئنا عند أبي عمرو بن العلاء يوماً ، فجاء عيسى بن عمر الثقفي فقال : يا أبا عمرو ما شيء بلغني عنك تميزه ؟ قال ما هو ؟ قال بلغني أنك تميز ليس الطيب إلا المسك ! فقال أبو عمرو نعم وأدب الناس ، ليس في الأرض حجازي إلا وهو ينضب ، ولا تسمى إلا وهو يرفع ! ثم قال للزبيدي وخلاف الأجر : اذهبا إلى أبي مهدي ولقناه الرفع فإنه

لا يرفع ، ولأبي المنتجع ، ولقناه بالنصب فإنه لا ينصب . فذهبا إلى أبي مهدي فوجدناه يصلي ، فلما قضى صلاته التفت إليهما وقال : ما خطبكما ؟ قالوا : نحن نسألك عن شيء من كلام العرب ، فقال هاتيا ، قالوا : كيف تقول ليس الطيب إلا للمسك ؟ فقال تأمراني بالكذب على كبر مني ؟ فقال خلف : ليس الشراب إلا العسل ؟ فأدرك أبو مهدي مقصوده وقال له : ليس ملاك الأمر إلا طاعة الله . فقال خلف معقبا على قوله : هذا كلام لا دخل فيه ، ليس ملاك الأمر إلا طاعة الله !! فأعادها أبو مهدي بالنصب وقال لهما : ليس هذا لحنى ولا لحن قومي . ثم أتيا أبا المنتجع فقال له خلف : كيف تقول ليس الطيب إلا للمسك ؟ فقالها ورفع ، فجهدا به أن ينصب فأبى إلا الرفع . ثم رجعا إلى ابن أبي العلاء وأخبراه الخبر وعيسى عنده لم يبرح ، فأخرج عيسى خاتمه من يده وقال له : ولك الخاتم بهذا ، والله قمت الناس » ا

٢ - قسم النخاعة « ما » النافية إلى خجازية وتميمية ، وقرروا أن خبر « ما » يكون منصوبا عند الحجازيين ، ومرفوعا عند بني تميم . وقد اشترط النخاعة شروطا لنصب خبر « ما » عند الحجازيين ، مما هو معروف في المطولات من كتب النحو .

٣ - ينصب الخبر بعد « إن » النافية في لهجة أهل العالية ، ويروى أنه سمع من بعضهم [ إن أحد خيرا من أحد إلا بالعافية ] .

٤ - بنو أسد يصرفون ما لا ينصرف ، ويقع منهم ذلك فيما علة منعه الوصفية وزيادة الألف والنون ، فيقولون [ لست بسكران ] .

٥ - لهجة تميم تنصب تمييز « كم » الخبرية مفردا ، ولهجة غيرهم توجب

جره وتبجز إفراده وجمعه . فبنو تميم يقولون : كم درهما أنفقت ؟ وغيرهم يقولون : كم درهما أنفقت ؟ وكم عبيد ملكت ؟ ولهذا كان قول الفرزدق [ كم عمه لك يا جرير وخالة ] موضع نقاش وجدل بين النحاة يمكن الرجوع إليه في اللطولات من كتبهم .

٦ - « لعل » الجر في اسمها عند عقيل ، قال شاعرهم :

لعل الله فضلكم علينا . . .

٧ - وتعمل « متى » عمل « من » الجارة عند هذيل ، قال شاعرهم :

شربن بماء البحر تم ترفعت متى لجج خضر هن نثيج

هذه هي أمثلة مما روى النحاة في كتبهم ، ونسبوه إلى اختلاف اللهجات العربية . والحق أن هذا النوع من الاختلاف الإعرابي لا يمت للهجات العربية بصلة ، وإنما هو من صناعة النحاة حين اشتد الجدل بينهم ، وحاول كل فريق أن يأتي بمجديد في تلك القواعد الإعرابية التي ملكت عليهم شاعرهم ، وصرقتهم عن كثير من البحوث القيمة في اللغة . فلم تكن لهجات الكلام عند القبائل تلتزم الأعراب على الصورة التي رويت لنا في كتب النحاة ، وإنما التزم الأعراب على تلك الصورة في اللغة الأدبية التي نزل بها القرآن الكريم ونظم بها الشعر . وقد كان الأعراب من الظواهر اللغوية ، التي عني بها الخاصة من العرب في خطبهم وشعرهم ، وعدّ بينهم مما يفخر به الأديب ويمهر في مراعاته . أما في لهجاتهم ولغة التخاطب بينهم فلا نكاد نعلم شيئاً عن قواعد إعرابهم ، وما التزموه في تحريك أواخر الكلمات أو إمكانها . فالأعراب كما نعرفه لم يكن

الامسألة مواضعة بين الخاصة من العرب ، ثم بين النحاة من بعدهم ، ولم يكن مظهراً من مظاهر السليقة اللغوية بين عامة العرب . ويدل على هذا شعورهم بقواعده وقوانينه منذ العهد الجاهلي ، فإذا خرج أديب عن تلك القواعد عيب عليه هذا .

والافكيف نتصور من الناحية الصوتية أن لساناً يعجز عن نصب خبر « ما » أو نصب اسم « لعل » أو جر تمييز « كم » الخبرية ؟  
فراعاة الناحية الاعرابية كانت من صفات اللغة الأدبية ، بل لقد كون فيها عنصراً عظيم الأهمية ، عدّ منذ الجاهلية مقياساً من مقاييس النصاحة .  
ويظهر هذا الاهتمام بظاهرة الاعراب في تلك اللغة الأدبية ، من تلك الأمثلة التي يسوقونها للحن بعض الشعراء والكتاب . فقد رووا أن رجلاً لحن في حضرة النبي فقال رسول الله : أرشدوا أخاك . ولا يعقل صاحب السليقة اللغوية يخطئ الا اذا كان ينطق بلغة خاصة يتمسك فيها بقواعد وأصول لاتراعى في حياته العادية ، وحين ينطلق على سجيته . كذلك سمع عمر بن الخطاب لحناً من الاعراب ، وكذلك علي بن أبي طالب . وقد عاب العرب على النابغة الذبياني وبشر بن أبي خازم الاقواء في شعرهما . وليس الاقواء في الحقيقة الا لحناً في الاعراب وخروجاً عن قواعده . ولم يستطع أحد أن يصارح النابغة ، وهو من خاصة الخاصة ، بهذا العيب ، حتى دخل يثرب مرة فأسمعوه غناء قوله :  
أمن آل مية رأمح أو معتدى هجلان ذا زاد وغير مزود  
زعم البوارح أن رحلتنا غدا وبذاك حدثنا الغراب الأسود  
فقطن لهذا وغيره الى قوله [ وبذاك تنعاب الغراب الأسود ] .

كما عيب على الفرزدق قوله :

وعض زمان يابن مروان لم يدع من الناس الا مسحة أو مجلف .  
وأمثلة هذا اللحن الاعرابي فيما سموه بعصور الاحتجاج كثيرة ، ملئت بها  
كتب اللغة والأدب ، وكلها تدل على قدر اهتمام القوم بناحية القواعد  
الاعرابية منذ العصر الجاهلي .

- ٢ -

### ما يتعلق بالناحية الصوتية

حين نعتمد على تلك الروايات المبتورة الناقصة التي رويت لنا متناثرة في  
بطون كتب اللغة والأدب ، نجد أنفسنا أمام صفات صوتية نسبت لبعض  
القبائل ، دون تحقيق كاف في الرواية والنقل . فلاجب أن يتخللها لهذا ، بعض  
الخلط وبعض اللبس الذي لا سبيل إلى التخلص منه إلا بعد دراسة اللهجات  
الحديثة دراسة مستفيضة مبنية على أسس علمية صحيحة . على أننا حين  
نستعرض تلك الروايات ، أو يعبارة أدق ما اشتهر منها ، نستطيع أن نقسم  
القبائل العربية بصفة عامة إلى طائفتين ، يشترك أفراد كل طائفة في صفات  
صوتية واحدة :

١ - فهناك قبائل بدوية عاشت في صحراء الجزيرة منعزلة ، مما أدى إلى  
اصطباغها بصبغة خاصة .

٢ - وهناك قبائل متحضرة عاشت في بيئة حضرية قريبة من المدن

العربية ، أو في ديار المدن نفسها ، وتلك قد اتصفت بصفات صوتية تخالف صفات الأولى . وقد اتصلت هذه القبائل في بيئتها الحضرية بلغات أجنبية أثرت في لهجاتها إلى حد ما . فالقبائل التي عاشت في مدن الحجاز أو متاخمة لها ، والتي عاشت في مدن اليمن المتحضرة ، وكذلك تلك التي اتصلت بعض الاتصال بمدن العراق ، نراها جميعاً ذات صبغة واحدة ، تخالف تلك التي انعزلت في صحراء الجزيرة وباديتها .

وقد نجد بعض صفات قليلة مشتركة بين هؤلاء وهؤلاء ، ويصعب في بعض الأحيان تمييزها ، ولكن حين يتم معرفتنا بتنقلات تلك القبائل ، واتصالها بغيرها ، سنعرف السر في هذا الاشتراك . فعمل من القبائل البدوية ما تأثر في بعض النواحي ببيئة حضرية ، وكذلك العكس .

أما الصفات الصوتية التي نلاحظها في لهجات القبائل البدوية بوجه عام فهي :

### ١ - الميل إلى الإمالة :

تحدثنا آنفاً عن طبيعة الإمالة من الناحية الصوتية ، وقلنا إنها المرحلة الثانية للصوت المركب الذي يسميه المحدثون Diphthong ، كما قررنا أنه قد تكون إمالة إلى الكسر في حالة ai ، وإمالة إلى الضم في حالة au . وقد وقعت القبائل البدوية عند مرحلة الإمالة ، ولم تتطور الإمالة في ألسنتهم إلى الفتح كما حدث عند الحجازيين ؛ وذلك لانعزال البيئات البدوية وبطء التطور في لهجاتها .

وإذا نسبنا الإمالة إلى قبائل وسط الجزيرة وشرقيها فليس معنى هذا أن

جميع هذه القبائل يميل بنسبة واحدة ، بل يظهر أن إمالة قبائل وسط الجزيرة كانت تلك الإمالة الشديدة ، أما إمالة القبائل المتاخمة لمدن العراق فقد كانت إمالة خفيفة ، أى قريبة من الفتح .

هذا حين تكون الإمالة نتيجة أصل يائى أو واوى كما أشرنا آنفاً كامالة نحو « باع ، قام » ، أما حين تكون الإمالة نتيجة انسجام بين أصوات اللين كما فى إمالة نحو « كتاب » ، فتلك صفة اختصت بها القبائل البدوية ، وقد سبقت فيها القبائل المتحضرة التى عنيت بتحقيق الأصوات ومنع تأثرها بعضها ببعض .

## ٢ - الميل إلى الضم :

مالت القبائل البدوية بوجه عام إلى مقياس اللين الخلقى المسمى بالضمّة ، لأنه مظهر من مظاهر الخشونة البدوية . فحيث كسرت القبائل المتحضرة وجدنا القبائل البدوية تضم . والكسر والضم من الناحية الصوتية متشابهان ، لأنهما من أصوات اللين الضيقة<sup>(١)</sup> .

لهذا تحمل إحداهما محل الأخرى فى كثير من الظواهر اللغوية . غير أن الكسر دليل التخضر والرقّة فى معظم البيئات اللغوية ، فهى حركة المؤنث فى اللغة العربية ، والتأنيث عادة محل الرقة ، أو ضعف الأنوثة . ولا شك أن الحضرى أميل إلى هذا بوجه عام .

ومما نلاحظه أن اللغة العربية فى تطورها إلى اللهجات الحديثة مالت فى

(١) انظر كتاب الأصوات اللغوية ص ٣٨ .

غالب الأحيان إلى التخلص من بعض ضمايتها ، وإبدال الكسرة بها حين استقرت في المدن والبيئات المتحضرة .

### ٣ — الميل إلى الأصوات الشديدة :

مالت القبائل البدوية إلى الأصوات الشديدة في نطقها ، وهو أمر طبيعي يلتزم مع ما عرف عن البدو من غلظة وجفاء في الطبع . لأن هذه الأصوات سريعة النطق بها ، حاسمة ، ثم إن ما فيها من عنصر انفجاري ينسجم وسرعة الأداء عند الأعراب .

وبهذا يتميز نطقهم بسلسلة من الأصوات القوية السريعة التي تطرق الآذان كأنما هي فرقعات متعددة ، في حين أن أهل المدن المتحضرة يميلون إلى رخاوة تلك الأصوات الشديدة بوجه عام ، إذ فيها من التؤدة والليونة ما ينسجم مع طبيعتهم .

فالباء والتاء والذال والكاف ، وغيرها من الأصوات الشديدة ، قد نسمعها في أفواه المتحضرين :

فاء . سينا . زايا . شينا . على الترتيب

### ٤ — الميل إلى جهر الأصوات :

في مثل تلك الصحراء الشاسعة الخالية من مظاهر المدنية ، قد تقفى الأصوات في جولا آخر له ، إذ يتحدث الناس غالبا في العراء ، وقد افترشوا الغبراء والتحفوا السماء ، وليس هناك من حائل يصد موجات الصوت ، أو يركزها ، بل تنساب الأصوات في محيط من الفضاء تخفى فيه الأصوات فلا تكاد تبين .



ولا شك أن الأصوات المجهورة أوضح في السمع ، تتلقاها الأذن في مسافة عندها قد تخفى نظائرها المهموسة .

لهذا كان من المعقول، بل ومن المشاهد ، أن البيئات المتعدنية التي تتحدث بين جدران المنازل ، والتي لا ترى داعياً لوضوح الصوت بنسبة أكبر مما يتطلبه السامع القريب ، تميل عادة إلى همس الأصوات .

ولقد دعت الحضارة منذ القدم ، بل ودعت آداب الإسلام إلى خفض الصوت ، مما ترتب عليه أن شاعت الأصوات المهموسة في البيئة العربية المتحضرة . ومما لاحظته المحدثون من علماء الأصوات أن النساء بصفة خاصة يملن إلى همس الأصوات وهو ما يتفق وطبيعتهن .

فكل « سين » عند الحضريين قد ينطق بها « زايا » عند البدو ، وكل « تاء » عند الحضريين قد ينطق بها « دالا » عند أبناء البدو . . . وهكذا . هذا إلى أن الأصوات المهموسة تتطلب جهداً أكبر في التنفس ، مما لا يتفق وطبيعة البدوي الهادئ الوادع الذي يقتصد في كل حركاته وسكناته . فاحتجاجة عبارة مثل « سكت شخص » من تنفس حين النطق بها أضعاف ما تحتاجه عبارة مثل « زرع رجل » ، لأن كل أصوات العبارة الثانية مجهورة ، في حين أن كل الأصوات الساكنة في العبارة الأولى مهموسة .

٥ - الميل إلى الارتفاع :

أصوات الارتفاع أصوات مفخمة ، لها زنة قوية في الأذان ، مما يلائم طباع البدو وخشوتهم . فلا عجب إذن أن تشيع تلك الأصوات في لهجات البدو ، وأن تأخذ في الانقراض من ألسنة المتحضرين .

واللغة العربية بصفة عامة قد مالت في تطورها الى التخلص من أصوات الاطباق ، أى الصاد . الظاء . الضاء . الطاء . اذ نسبة شيوع هذه الأصوات في الأسلوب القرآني ضئيلة جداً . فنسبة شيوع الصاد ٨ مرات في كل ألف من الأصوات الساكنة ، والضاد ٦ مرات ، والطاء ٤ مرات ، والظاء ٣ مرات ، في حين أن صوتاً كالنون مثلاً نسبة شيوعه حوالى ١١٢ مرة في كل ألف من الأصوات الساكنة .

وقد مالت اللهجات الحديثة الى التخلص من هذه الأصوات في معظم المواضع . ولقد روى عن تميم أنهم كانوا يقلبون « السين » « صاداً » عند بعض الأصوات المفخمة كأصوات الاطباق ، وكذلك الكاف والغين والحاء إذا كن بعد « السين » مثل :

سراط = صراط	سخر لكم = صخر لكم
سيقل = صيقل	سبغة = صبغة

### ٦ - الميل إلى أصوات الفم :

ونعني بهذا أننا نلاحظ بوجه عام حرص اللغة العربية على مجرى الصوت في الفم ، بحيث يتسرب النفس من الفم دون أن يتجه إلى الأنف ، إلا مع الميم والنون . على أنه روى لنا أن بعض القبائل قد مالت إلى قلب بعض أصوات الفم إلى نظائرها من أصوات الأنف . وليس لمثل هذا ما يبرره سوى احتمال الاتصال بعنصر أجنبي عن اللغة العربية . ولا شك أن مثل هذا الاتصال إذا صح حدوثه ، لا يكون إلا حيث اختلط العرب بعناصر أجنبية عنهم في

المدن والبيئات المتحضرة . فصفة الميل إلى أصوات الفم من صفات العرب جميعاً ، إلا حين يتأثرون بغيرهم ممن شاع فيهم الميل إلى أصوات الأنف كاليهود مثلاً . تلك هي الصفات الصوتية العامة التي نستطيع هنا أن نرجحها للهجات العربية القديمة ، موزعة بين طائفتين منهم : أولئك الذين انعزلوا في البادية وعاشوا معيشة البدو ، وأولئك الذين اتصلوا بالبيئات المتحضرة وتأثروا بها . لنبدأ بعد هذا في تطبيق تلك الصفات الصوتية العامة على نصوص الروايات المتناثرة في كتب اللغة والأدب .

### أولاً : الامالة :

أجمعت الروايات على نسبة الامالة لقبائل وسط الجزيرة من : تميم . أسد . قيس عيلان وعامة نجد ، في حين أن الفتح قد نسب إلى قبائل الحجازيين . وقد تحدثنا عن الامالة من قبل بما فيه الكفاية .

### ثانياً : الميل إلى الضم :

أ — المشهور في مثل « يا أيها الناس » بناء الهاء على الفتح ووصلها بألف تظهر عند الوقف ، ولكن لهجة « بني مالك » من « بني أسد » تضمها ، فيقولون « يا أيه الناس » .

ب — المشهور في اسم للوصول « الذين » التزام حالة واحدة وهي الياء ، ولكن قبيلة هذيل أو عقييل [ شك من الرواة ] يعربونه إعراب جمع المذكر السالم ، قال شاعرهم :

نحن اللذون صبحوا الصباحا يوم النخيل غارة ملحاحا

ج - بنو تميم يعربون كلمة « أمس » وعليه فيجوز رفعها ، في حين أن الحجازيين يبنونها على الكسر .

د - قرأ يعقوب وحمة ، وهما عراقيان أو ممن تأثروا بالبيئة البدوية ، كما أشرنا من قبل « عليهم وإيهم »  
فدل هذا على أن من القبائل من يؤثرون ، الضم ، أو بعبارة علمية صوت اللين الخلفي .

### ثالثاً : الميل إلى الكسر في البيئة الحضرية :

أشرنا قبلاً إلى أن بعض القبائل التي تأثرت بحياة الحضر قد آثرت صوت اللين الأمامي الذي نسميه بالكسرة ، وقلنا إن مثل هذه الظاهرة مما يمكن أن يعدّ من صفات الرقة أو الأنوثة في بعض الأحيان . وقد روى لنا أن بعض القبائل التي عاشت في حدود الشام وتأثرت بمدنها واللغات المنتشرة فيها ، قد شاع بينها هذا المظهر الصوتي ، كما شاع في غيرها من قبائل عربية متحضرة :

أ - فالمشهور أن حرف المضارعة يكون مفتوحاً دائماً ما لم يكن الفعل رباعياً فيضم ، ولكن لهجة « بهراء » تؤثر كسره مطلقاً . و « بهراء » هذه قبيلة في « قضاة » كانت مساكنهم متاخمة لحدود الشام ، ومتأثرة بمدنها وبما انتشر بها من لغات كالآرامية والعبرية اللتين اطردهما كسر حرف المضارعة وقد سمى القدماء هذه الظاهرة « تلتلة » بهراء ، ومثلوا لها بقول الشاعر :

لو قلت ما في قومها لم تيشم يفضلها في حسم وميسم

ب - تلك الظاهرة التي سماها القدماء « بوكم » بنى كلب حيناً ، وبوهمهم

حيناً آخر ، ليست في الحقيقة إلا إيثاراً لصوت اللين الأمامي ، أي الكسر ،  
على صوت اللين الخلفي ، أي الضم .

فحيث ضم كثير من قبائل البدو كاف الخطاب في « عليكم » كسرهما  
بنو كلب فقالوا « عليكم » وهذا هو « الوهم » ، وحيث ضم كثير من قبائل  
البدو ضمير الغيبة في « منهم » جاء بنو كلب وآثروا الكسر فقالوا « منهم »  
وهذا هو « الوهم » .

وبنو كلب هؤلاء فرع من قضاة أيضاً ، ترددت مساكنهم بين تخوم الشام  
وما يقرب من بلاد العراق . لهذا كان من الطبيعي أن يتأثروا بما انتشر بذلك  
البقاع من لغات سامية كالآرامية والعبرية ، وكلاهما آثر الكسر في مثل  
هذه الضمائر .

#### رابعا : الميل إلى الأصوات الشديدة :

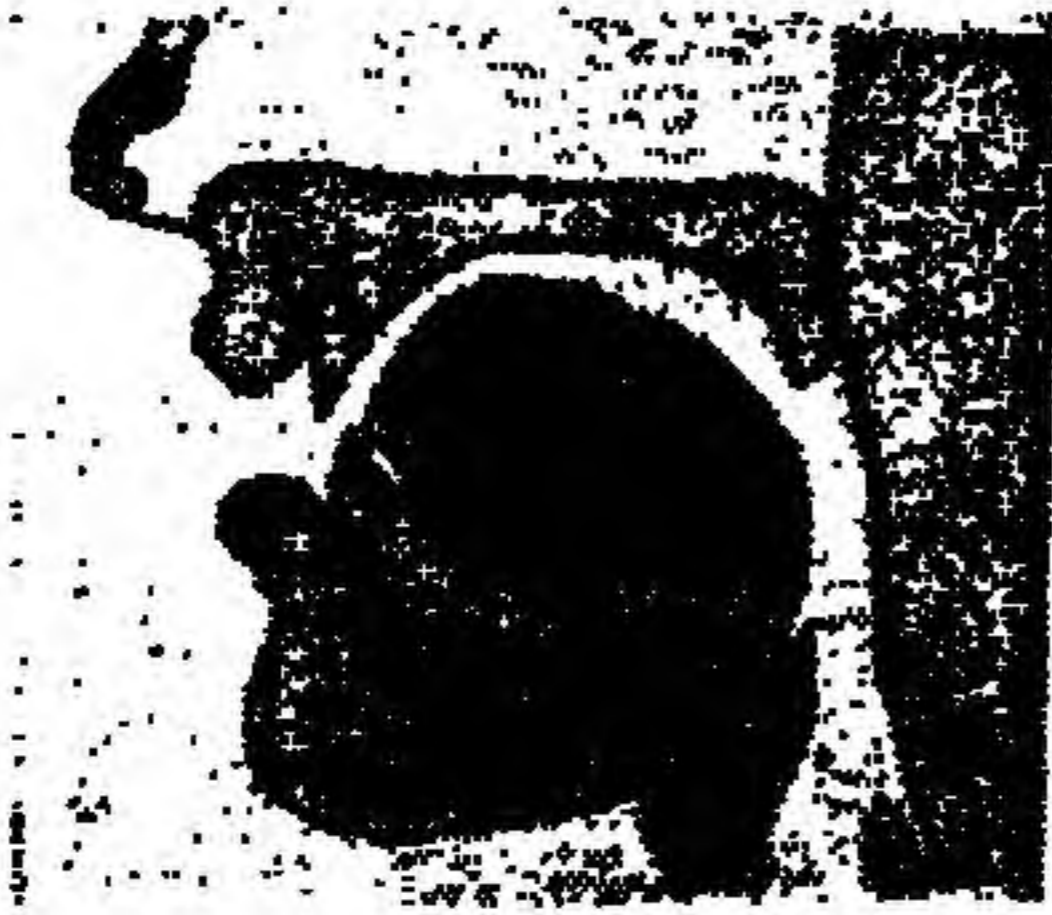
من مظاهر اضطراب الروايات في كتب اللغة والأدب أن تنسب صفة  
خاصة من صفات اللهجات لشعب عظيم يتكون من عدة قبائل ، ثم في موضع  
آخر تنسب له صفة أخرى مناقضة للأولى .

ونحن نقف أمام تلك الروايات المتناقضة حيارى لا ندرى أيها تصدق ،  
وبأيها نأخذ ، ولكننا إذا نظرنا إلى تلك المجموعة من القبائل وجدنا  
بعضاً منها قد تأثر ببيئة بدوية والبعض الآخر يبدو تأثره ببيئة حضرية . فعليلاً  
في مثل هذه الحالة أن تنسب الصفة إلى ما يناسبها من قبائل ذلك الشعب  
العظيم مهتدين بتلك القاعدة العامة التي قررناها ، وهي أن ظواهر اللهجات في

القبائل البدوية تخالف إلى حد كبير ظواهرها في القبائل المتحضرة التي عاشت في المدن . فمثلا تنسب الروايات صفة الشدة في الصوت لليمن دون تعيين قبيلة فيها ثم في موضع آخر تنسب صفة الرخاوة لقبائل يمنية أيضاً ، فواجب الباحث المدقق أن يقسم قبائل اليمن إلى بدوية وحضرية ، ثم ينسب الشدة للبدوية منها ، والرخاوة للحضرية . وبذلك نستطيع بقدر الإمكان التوفيق بين تلك الروايات المتناقضة : —

١ — فمثلا روى أن « السين » تقلب « تاء » في لهجة اليمن ، فيقولون « التات » في « الناس » . فنحن هنا أمام شعب عظيم من القبائل تنسب له صفة خاصة من صفات اللهجات وهي قلب صوت رخو إلى نظيره الشديد . فعلينا أن نبحث في مثل هذه الحالة عن أي قبائل اليمن تلك التي مالت إلى البداوة أو عاشت قريبة من الصحراء ، فنجد أن أقرب قبائل اليمن إلى البداوة قبيلتان مشهورتان هما : خثعم ، زبيد . وعليه فلا بأس من نسبة هذه الصفة إلى هاتين القبيلتين بين قبائل اليمن .

أما الدير الصوتي لا تقلب « السين » « تاء » فهو هين واضح ، لأنها يكادان يكونان متماثلين في المخرج ، كما أن كلا منهما صوت مهموس ، ولم يبق إذن إلا أن يلتقي طرف اللسان بأصول الثنايا العليا التقاء محكما ينحبس النفس ، حتى إذا انفصلا انفصالا مفاجئا سمع ذلك الصوت الانفجاري الذي تسميه بالتاء ، في حين أنه في حالة النطق بالسين نلاحظ أن انحباس النفس لا يكون محكما ، بل هناك فراغ ضيق بين طرف اللسان وأصول الثنايا العليا ليتسرب منه الهواء ، كما ترى في الشكلين الآتيين :



( شكل ٤ )  
وضع اللسان مع « السين »



( شكل ٣ )  
وضع اللسان مع « التاء »

ب — كذلك روى أن من قبائل اليمن من ينطقون « بالجيم » شديدة لا رخاوة فيها ، أي تماثل تلك الجيم الشائعة في اللهجة القاهرية الحديثة . فإذا قارنا بين « الجيم » اليمنية والجيم الفصيحة كما وصفت في كتب القراءات وجدنا فرقاً من ناحيتين : الأولى أن « الجيم » اليمنية أكثر شدة ، والثانية أن مخرج « الجيم » اليمنية هو أقصى الحنك ، ولكن مخرج « الجيم » الفصيحة هو وسط الحنك . فما حدث في نطق اليمنيين « للجيم » هو انتقال المخرج إلى وراء قليلاً ، وانحباس النفس معها انحباساً كاملاً ، رغم احتفاظ كلا الصوتين بصفة الجهر .  
حقاً أن « الجيم » الفصيحة تعدُّ صوتاً أقرب إلى الشدة منها إلى الرخاوة ، ولكن « الجيم » اليمنية قد كملت شدتها ، وذلك من صفات البيئة البدوية .  
وليس ينقض ما قررناه آنفاً أن نرى تلك « الجيم » اليمنية شائعة في البيئة القاهرية وغيرها من بعض مدن القطر المصري ، لأنها لم تنشأ في البيئة المصرية ، وإنما وُدت إليها مع من أقام بها من قبائل .  
وقد نسبت هذه « الجيم » أيضاً لبعض قبائل طيء ، وهم كما نعرف من البدو الذين عاشوا في بعض نواحي نجد .

وإذا كان علينا أن نتخير من قبائل اليمن من نرجح نسبة مثل هذه الصفة إليه ، لم نجد خيراً من قبيلتي : خثعم ، زبيد .

— اشتهر بين صفات النهجات العربية ظاهرة أطلق عليها القدماء اسم « العجمجة » ، وقالوا عنها إنها قلب الياء جيماً .

وتعد هذه العملية الصوتية انتقالاً بصوت لا هو بالشديد ولا الرخو ، وهو « الياء » إلى صوت آخر أميل إلى الشدة منه إلى الرخاوة : وهو « الجيم » . ولعل هذه الظاهرة من صفات القبائل البدوية أيضاً .

وقد نسب القدماء هذه الصفة إلى شعب عظيم هو قضاة . ولكننا نعلم أن قضاة قد تفرعت إلى سبعة أحياء :

بلي . جهينة . بنو كلب . عذرة . بهراء . بنونهد . جرم

وبين هذه الأحياء السبعة من تأثروا بالحياة الحضرية ، كما أن أن بينهم من عاشوا عيشة البداوة . وخير من يمكن نسبة هذه الصفة إليه من أحياء قضاة :

جهينة أو جرم .

فالعجمجة لم تكن في الحقيقة صفة كل أحياء قضاة ، وإنما يحتمل أنها كانت صفة هذين الحيين فقط .

وقد قيد الرواة عجمجة قضاة بأن تسبق « الياء » « بالعين » !! وضربوا أمثلة لهذا مثل :

« الراجع خرج بمعج » أي « الراعي خرج معي » .

ويظهر أن « الياء » فيما ساقوه من أمثلة لم تكن في نطق القضاة ياء



مد ، بل كانت صوتا ساكنا ، أى أنه كان ينطق بها « الراعى » ، حتى يمكن أن نتصور قلبها إلى جيم .

وقد نسبت هذه الصفة أيضا إلى « فقيم دارم » فى قبيلة تميم ، وهو ما يؤيد ما نذهب إليه من احتمال وجود هذه الصفة بين البدو من القبائل . ولم تقيد هذه الصفة بأى قيد حين نسبت إلى « فقيم دارم » ، فقد أنشد أبو زيد :

يا رب إن كنت قبلت حجتيج<sup>ج</sup> فلا يزال ساجح<sup>ج</sup> يأتيك<sup>ج</sup> بحج<sup>ج</sup>

وقال الحماسى :

خالى عويف وأبو علج<sup>ج</sup> اللطمان الضيف فى العشج<sup>ج</sup>

أما العلاقة بين الياء والجيم من الناحية الصوتية فواضحة جلية ، لأن كلا منهما صوت مجهور ، ومخرجهما واحد ، وإنما تختلف الجيم عن الياء فى أن الأول صوت أقرب إلى الشدة منه إلى الرخاوة ، فى حين أن الياء من الأصوات المتوسطة الشبهة بأصوات اللين ، وليست بشديدة ولا رخوة .

وربما قد التفتت تلك القبائل إلى الانتقال بالصوت من صفة اليسر إلى صفة العسر قصد التفخيم فى الكلام ، وهو ما لا نستطيع تصويره إلا بين قبائل البدو .

علينا بعد هذا أن ننظر إلى ذلك القيد الذى قيدت به لهجة قضاة ، وهو

أن تسبق الياء بالعين ! !

فى الحق أنه ليس لهذا القيد ما يبرزه من الناحية الصوتية ، اللهم أن يقل إن كلا من العين والياء من الأصوات المتوسطة التى ليست بالشديدة ولا الرخوة ،

وتدخيم القول يقتضى أن يقلب أحدهما إلى نظير له شديد ، فكانت الجيم بدل الياء .

ولكن لم كانت العين وحدها دون باقى الأصوات المتوسطة الأخرى من ميم ونون وراء ولام ؟ ! هذا ما لا نستطيع الإجابة عنه الآن لنقص معرفتنا بكل طبائع اللهجات العربية القديمة .

هـ — روى أن بعض القبائل العربية ، كانوا يقلبون فى لهجاتهم « الميم » « باء » ، و « الباء » « ميا » ! وقد نسب الرواة هذه اللهجة إلى « مازن » من ربيعة ، كما نسبت إلى بكر بن وائل وهى من قبائل ربيعة كذلك . ثم يروون قصة طريفة لا بأس من إيرادها هنا وهى :

« روى المبرد أن بعض أهل الذمة قصد أبا عثمان المازنى إمام الصرفيين فى زمانه ليقرأ عليه كتاب سيديويه ، و بذل له مائة دينار فى تدريسه إياه ، فامتنع أبو عثمان من ذلك . قال فقلت له : جعلت فداك ، أترد هذه المنفعة مع فافتك وشدة إضاقتك ! ؟ فقال : إن هذا الكتاب يشتمل على ثلثمائة وكذا وكذا آية من كتاب الله عز وجل ، ولست أرى أن أمكن منها ذميا غيره على كتاب الله وحمية له . قال فاتفق أن ~~يشتريه~~ <sup>يشتريه</sup> بحضرة الواثق بالله بقول العرجي :

أظلم إن مصابكم رجلا أهدى السلام تحية ظلم

فاختلف من كان بالحضرة ~~في~~ <sup>في</sup> « رجلا » ، فمنهم من نصبه ومنهم من رفعه ، والجارية مصرة على أن شيخها أبا عثمان المازنى لقنها إياه بالنصب . فأمر الواثق بإشخاصه . قال أبو عثمان : فلما مثلت بين يديه ، قال ممن الرجل ؟ قلت من بنى مازن . قال أى الموازن ، أمازن تميم أم مازن ربيعة ؟ قلت مازن

ربيعة . فكلمني بكلام قومي وقال : « يا اسمك » ؟ لأنهم يقلبون الميم باء والباء ميما ! قال فكرهت أن أجيبه على لغة قومي كيلا أواجهه بالمكر ! فقلت بكر يا أمير المؤمنين ! فظن لما قصدته وأعجب به . ثم قال : ما تقول في قول الشاعر : أظلم إن مصابكم رجلا ؟ أترف رجلا أم تنصبه ؟ فقلت : بل الوجه النصب يا أمير المؤمنين . فقال : ولم ذلك ؟ فقلت : إن مصابكم مصدر بمعنى إصابتكم . فأخذ البيهقي في معارضتي ، فقلت هو بمنزلة قولك : إن ضربك زيدا ظلم ، والدليل عليه أن الكلام يعلق إلى أن تقول : « ظلم » فيتم . فاستحسنه الواثق وقال : هل لك من ولد ؟ فقلت : نعم ، بنية يا أمير المؤمنين . قال : ما قالت لك عند مسيرك ؟ فقلت أنشدت قول الأعشى :

أيا أبتا لا ترم عندنا فإنا بخير إذا لم ترم  
أرانا إذا أضمرتك البلا د تجفى وتقطع منا الرحم

قال : فما قالت لها ؟ قال قلت قول جرير :

ثقي بالله ليس له شريك ومن عند الخليفة بالنجاح  
قال : على النجاح إن شاء الله تعالى . ثم أمرني بألف دينار وردني مكرما .  
قال المبرد : فلما عاد إلى البصرة ، قال لي كيف رأيت يا أبا العباس ، ردونا  
لله مائة ، فعوضنا ألفا . » .

نحن هنا أمام رواية غريبة لا تبررها القوانين الصوتية . فليس هناك لهجة من لهجات اللغات في العالم تلتزم قلب كل ميم إلى باء والعكس ، لأنها عملية متناقضة لا مبرر لها . بل قد يكون من المغالاة أن نفترض أن لهجة من اللهجات تلتزم قلب أحد هذين الصوتين إلى الآخر .

حقاً أن هناك علاقة صوتية بين « الميم » و « الباء » ، إذ كلاهما صوت شفوي ، ولكن مثل هذه العلاقة وحدها لا يكفي مبرراً لمثل هذه الظاهرة . نعم أن من لهجات العالم ما تتضمن شيئاً من هذه الظاهرة ، وذلك حين نلاحظ قلب « الميم » « باء » في بعض اللواضع ، أو « الباء » « ميم » في مواضع أخرى ، ولكن هذا مقيد بوجود « الميم » أو « الباء » في مواضع خاصة من الكلمات ، وأن يكتنفهما أصوات خاصة تساعد على هذا الانقلاب .

فليست المسألة قاعدة مطردة في كل « ميم » وفي كل « باء » .

فنحن في تحقيق هذه الرواية بين أمرين :

١ - إما أن نشطرها شطرين : الشطر الأول وهو قلب الميم باء ، والشطر الثاني هو قلب الباء ميم ، ثم ننسب كل شطر إلى قبيلة خاصة أو لهجة خاصة .

٢ - أو ألا ننسب هذه الظاهرة لبيئة خاصة ، وإنما ننظر إليها على أنها مما يعرض للأصوات من تطور وتغير .

وعلى الرأى الأول وهو نسبة شطر من هذه الظاهرة إلى لهجة خاصة نرى أن القبيلة التي يمكن أن يشيع فيها قلب « الميم » « باء » ، قبيلة من القبائل البدوية التي تميل إلى الأصوات الشديدة ، لأن « الباء » تختلف عن « الميم » في شيئين : أحدهما أن « الباء » صوت شديد ، وثانيهما أن مجرى النفس معها من الهم ، في حين أن مجرى النفس مع « الميم » من الأنف ، وأنها من الأصوات المتوسطة الشبيهة بأصوات اللين أي ليست بالشديدة ولا الرخوة .

أما الشطر الثاني وهو قلب « الباء » « ميا » فهو انتقال من صوت شديد إلى صوت متوسط هو أحد الأصوات المائعة « Liquids » ، وربما كان هذا أقرب إلى بيئة حضرية منه إلى بيئة بدوية .

والموازن كما اتضح لنا من القصة السابقة ثلاثة : مازن ربعية . ومازن تميم ومازن قيس .

ولعل مازن ربعية أقرب الثلاثة إلى البيئة الحضرية ، وأكثرها احتمالا للتأثر بهذه البيئة .

وعلى هذا يمكن أن ننسب لموازن ربعية قلب « الباء » « ميا » ، وأن ننسب لموازن تميم وقيس قلب « الميم » « باء » .

على أنه حتى في هذا يجب ألا يُعدَّ هذا الانقلاب بمثابة ظاهرة مطردة ، نجد في كل « ميم » وفي كل « باء » ؛ بل يكفي أن تقول إن مازن ربعية كانوا يقلبون « الباء » « ميا » في بعض المواضع ، وإن مازن تميم كانوا يقلبون « الميم » « باء » في بعض المواضع أيضا ، وبشروط خاصة في كل من الحالين ، وإلا ترتب على اطراد مثل هذه الظاهرة أن نجد لهجة من اللهجات العربية خالية من الميمات أو الباءات !

أما تلك الشروط الخاصة فلا نستطيع استنباطها مع ما لدينا من معلومات ناقصة عن اللهجات العربية القديمة .

وعلى الرأي الثاني وهو الراجح ، فيمكن أن تفسر هذه الظاهرة على أنها لا تختص بقبيلة ما ، وإنما قد صادف أن سمعها بعض الرواة من قوم من مازن ؛ [أي كانت مازن هذه] فنسبها إليها ، ثم جرى المؤلفون بعده على هذا ، دون تحقيق أو نظر في صحة هذه الرواية .

والحقيقة أن مثل هذه الظاهرة مما يمكن أن ينسب إلى أية لهجة من اللهجات المنعزلة ، لا على أنها مطردة بل مقيدة بشروط خاصة .  
وهذه الظاهرة ليست إلا نتيجة أخطاء الأطفال في البيئة المنعزلة التي لا يجد فيها الطفل فرصة كافية لإصلاح أخطائه ، فيشب عليها وتصبح فيما بعد نطقاً جديداً في جيله .

فلنتصور بيئة منعزلة غير مستقرة على حال ، لا يجد فيها الأطفال من رعاية الآباء ما يستحقونه ، وذلك لانشغال الرجال بأمور الحرب أو السفر في تجارة زمننا طويلاً ، كما أن النساء منصرفات عن أبنائهن بشئون الحياة العسيرة الشاقة ، ولا يجدن من الوقت مع ما هن فيه من مشقة وعسر ، ما يكفي للنظر في شئون أطفالهن والتحدث إليهن حديثاً هادئاً وادعاً يصلح من نطقهم ويرشدهم إلى طريق الصواب .

هنا ترى الأطفال ، ولما تكمل مراحل نطقهم ، يلزم بعضهم بعضاً ، ويتحدث بعضهم إلى بعض ، و ترى الطفل الكبير فيهم يأخذ مكان الأم أو الأب في تعليم الآخرين والتأثير في نطقهم . فإذا شب هذا الجيل الجديد احتفظ في لهجته ببعض أخطاء الطفولة التي تصبح فيما بعد عنصراً معترفاً به في لهجتهم ، وظاهرة من ظواهرها . وتلك هي سنة التطور اللغوي . فما كان يعد بالأمس خطأ تنفر منه الآذان أصبح اليوم صواباً في جيل جديد من المتكلمين .  
وليس تقتصر أخطاء الأطفال على ما يتعلق « بالميم » « والباء » ، بل هي أم من هذا وأشمل ، ولها ظواهر كثيرة يمكن الرجوع إليها في كتب الأصوات اللغوية (١) .

( ١ ) أنظر كتاب الأصوات اللغوية صفحة ١٤٥ .

فما يعرض « للميم » أو « الباء » في أخطاء الأطفال ليس إلا مثلاً منها .  
 وبما أيده تجارب المحدثين من علماء الأصوات أن الأطفال بصفة عامة يميلون  
 إلى قلب صوت من أصوات الفم إلى نظيره من أصوات الأنف في بعض الأحيان ،  
 كما أنه قد يحدث العكس عند الأطفال قبل أن تم مراحل نمو لغتهم . لأن  
 الطفل في نطقه يتلمس أيسر الطرق ، ومالا يكافئه جهداً عضلياً . وهو لهذا لا يميل  
 إلى الجمع بين صوتين أحدهما مجراه الأنف « كالميم » « والنون » ، والآخر مجراه  
 الفم كباقي الأصوات . ولهذا يميل إلى جعل مجرى كلا الصوتين المتجاورين إما  
 من الفم فقط ، أو الأنف فقط .

لهذا قد نسمع بعض أطفالنا في المراحل الأولى يقولون في « تين » « نين » .  
 ففي هذا المثال جهر الطفل أولاً « بالتاء » فأصبحت « دالا » ، ثم جعل مجرى  
 الدال من الأنف فصارت « نونا » . كما قد نسمع بعض أطفالنا يقولون في « موز »  
 « بوس » ، فقد قلبت الميم هنا إلى نظيرها من أصوات الفم وهو « الباء » . ومثل  
 هذا يمكن أن يقال في نطق بعض أطفالنا للكلمات الآتية :

دبان . جبل ، بلكونة

على الأوجه الآتية بالترتيب .

دمان . جبل . ملكونة

فإذا شب الأطفال في بيئة منعزلة غير مستقرة ، ولم يجدوا من يصاح لهم مثل  
 هذه الأخطاء ، فقد تصبح الكلمات الأخيرة مستعملة في لغتهم مقبولة في جيلهم ،  
 تكون عنصراً جديداً في اللغة .

ومن المحتمل أن بعض كلمات اللغة العربية التي اشتملت على « ميم » أو « باء » ،  
 قد تعرضت لمثل هذه الظاهرة من أخطاء الأطفال في قبيلة من القبائل . فلما

جاء جامعو اللغة وسمعوا تلك القبيلة تنطق « بالميم » في بعض الكلمات حيث ينطق غيرها بها « باء » ، ظنوا أن تلك القبيلة تلتزم هذه الصيغة في كل الكلمات ، وكذلك العكس حين سمعوا قبيلة تنطق « باء » في بعض الكلمات حيث ينطق غيرها بهذه « الباء » في تلك الكلمات « ميا » ، ظنوا أن من القبائل العربية من يلتزمون قلب « الباء » « ميا » وهكذا .

وبمثل هذا الشرح يمكن أن ننظر إلى جميع الكلمات العربية المشتركة المعاني والأصوات ، والتي لا فرق بينها سوى أن مكان « الميم » في بعضها « باء » في البعض الآخر ، أو أن مكان « الباء » في بعضها « ميم » في البعض الآخر .

#### خامسا : لجهات تميل إلى الأصوات الرفوعة :

أجمع الرواة على نسبة صفة خاصة لقبائل ربيعة سموها أحيانا بالكشكشة ، وحيناً آخر بالكسكسة . ثم اختلفوا في تبيانها ، فقالوا مرة إنها قلب كاف المؤنثة شيناً أو سيناً في حالة الوقف ، وفي موضع آخر قالوا إن هذه « الشين » أو « السين » لا تحل محل كاف المؤنثة ، وإنما تلحق بها في حالة الوقف . وضر ابوا لهذه الظاهرة أمثلة من نثر وشعر فقالوا :

منش = منك . عيش = عليك

وروا لشاعر هذا البيت مخاطباً به الظبية :

فعيناش علمناها وجيدش جيدها ولكن عظم الساق منش دقيق

وحكى بعضهم أنه سمع أعرابية تقول لجارتها :

ارجعي وراءش فإن مولاش يناديش



ثم زعم بعض الرواة أن الكاف مطلقاً سواء كانت لمؤنث أم مذكر  
تقلب سيناً في لهجة ربيعة فيقولون :

منس = منك

كما نسب بعض الرواة قلب الكاف مطلقاً إلى شين في لهجة من لهجات  
اليمين . وقد سمع بعضهم في عرفة يقول :

« لبيش اللهم لبيش »

وسموا هذه الظاهرة بشنشة اليمين . ثم زعم الرواة في مواضع أخرى أن  
الكشكشة في لهجة ربيعة هي أن يقفوا على الكاف المؤنثة بزيادة « شين »  
فيقولون مثلاً : « استجرت بكش » .

وقال آخرون إن ما ينسب إلى ربيعة هو « الكسكسة » فيقفون على  
على الكاف مطلقاً بزيادة « سين » ١١ ونقل الحريري أن « الكسكسة »  
لبكر لا لربيعة ، وقصرها على زيادة « السين » في حالة المؤنثة فقط . وفي موضع  
آخر نسبت هذه الصفة لتميم أو أسد ... الخ .

ألا ترى معي أننا هنا أمام روايات متناقضة لما يبدو كظاهرة واحدة ؟  
ونحن حين ننظر إلى هذه الروايات على ضوء القوانين الصوتية نستطيع  
أن نستخلص أموراً :

١ — أن « الكسكسة » بالسين لا وجود لها في اللهجات العربية ،  
وإنما هي « الكشكشة » بالشين ، وقد رويت مصحفة ، وخصوصاً أن كلا  
من « الكشكشة » و « الكسكسة » قد نسبه معظم الرواة إلى قبيلة واحدة

هي ربيعة . وذلك لأن قلب الكاف إلى ما يشبه الشين أقرب لطبيعة الأصوات من قلبها إلى « السين » .

٢ — أن الكشكشة مقيدة بكاف مكسورة لما سذكروه فيما بعد .  
٣ — ليست الكشكشة مقيدة بحالة الوقف ، وإنما تصادف أن الكاف فيما روى من أمثلة كانت في آخر الكلمة أو الجملة .

٤ — لا بد في الكشكشة أن تحمل « الشين » محل الكاف ، لم يكن أن تعد هذه الظاهرة من ظواهر اللهجات . إذ ليس هناك ما يبرر أن تتصل الكاف بصوت آخر في حالة الوقف ، بل الأقرب إلى القوانين الصوتية وطبيعة اللهجات أن يحمل صوت محل آخر ، لما سذكروه من الأسباب .

٥ — أن ما خيل للقدماء أنه « شين » ليس « شينا » خالصة كتلك التي نعهدا .

الآن وقد جردنا هذه الروايات مما قد لحق بها من تشويه ، علينا أن نشرح هذه الظاهرة على حقيقتها في ضوء ما تقرره طبيعة الأصوات وقوانينها . وصل العلماء في مقارنتهم اللغة السنسكريتية باللغتين اليونانية واللاتينية إلى قانون صوتي سموه « قانون الأصوات الحنكية » في أواخر القرن التاسع عشر . وليس يعنيننا هنا شرح هذا القانون شرحاً مسهباً ، وإنما نبغى الإشارة إلى عنصر منه يلقي ضوءاً على ما نحن هنا بصدده . فقد لاحظوا أن أصوات أقصى الحنك « كالكاف » و « الجيم » الخالية من التعطيش ، تميل بمخرجها إلى نظائرها من أصوات وسط الحنك حين يليها صوت لين أممي ( كالكسرة ) . لأن صوت اللين الأممي في مثل هذه الحالة يجتذب إلى الأمام قليلاً أصوات

أقصى الحنك فتقلب إلى نظائرها من أصوات وسط الحنك . ولهذا وجدت بعض الكلمات الهندية — الأوربية التي كانت تشتمل على « الكاف » ، قد تطورت فيها هذه الكاف فيما بعد إلى صوت وسط الحنك الذي ينطق به كما ينطق الصوت الأول في الكلمة الانجليزية « Chicken » أي تش . وهذا الصوت الذي قد يخيل إلى بعض السامعين أنه مكون من صوتين ، ليس في الحقيقة إلا صوتاً واحداً كما برهنت التجارب الحديثة في علم الأصوات . ويسمى المحدثون هذا الصوت وأمثاله « Affricative » . ويتكون هذا الصوت الواحد من عنصرين : أولهما ينتمي إلى الأصوات الشديدة وهو ما يشبه التاء ، وثانيهما إلى الأصوات الرخوة وهو ما يشبه الشين .

وهذا الصوت هو نفس ما سمعه القدماء في تلك الظاهرة التي سموها « الكشكشة » ، كما أنه هو نفس الصوت الذي لا تزال تسمعه في بعض اللهجات الحديثة بمصر ، مثل لهجة بلدى شرويدة وزنكلون وما حولهما من مديرية الشرقية ، حين ينطقون بمثل هاتين الكلمتين :

كلب ، كِتاب

ويبرر قلب الكاف إلى هذا الصوت أن يليها كسرة « أى صوت لين أمامى » يجتذب مخرجها إلى وسط الحنك . وعلى هذا فلا شك أن أهل شرويدة وزنكلون ينطقون بكلمة « كلب » على أنها مكسورة الكاف .

فالذين رووا هذه الظاهرة بين اللهجات العربية القديمة وقصروها على قلب كاف المؤنثة إلى « شين » كانوا أقرب الجميع إلى الصواب ، لأن الكسرة في كاف المؤنثة هي العامل الأساسي في هذا الانقلاب . أما جعلها في آخر

الكلمة وقصرها على كاف الخطاب في حالة الوقف ، فليس له ما يبرره من الناحية الصوتية .

فالكشكشة التي شاعت في بعض اللهجات العربية القديمة ليست إلا ظاهرة طبيعية شوهدت في كثير من لهجات العالم ، وهي قلب الكاف التي يليها صوت لين أممي ، أيا كان موضعها من الكلمة ، إلى نظيرها من أصوات وسط الحنك . وقد روى هذا في غير كاف المؤنثة في بعض الأشعار القديمة مثل :  
 علىٰ فيها أبتفى أبغيش بيضاء ترضيني ولا ترضيش  
 وتطبي ود بني أيش إذا دنوت جعلت تنثيش  
 وإن نأيت جعلت تدنيش وإن تكلمت حثت في فيش  
 حتى تنقى كنفيق الديش

وقد جهد الرواة يتحايلون بالتأويل والتخريج ليبرروا قوله « حتى تنقى كنفيق الديش » أي كنفيق الديك ، لأن هذه الكاف ليست للمؤنثة ! وليست شنة اليمن إلا كشكشة ربعة . ويجب نسبة هذه الظاهرة إلى القبائل اليمنية التي تأثرت بمدن اليمن وحياتها الحضرية ، وإلى تلك القبائل من ربعة التي تأثرت بمدن العراق وبيئتها ، فإذا ذكرت هذه الظاهرة على أنها لربعة وجب أن تنسب لتغلب من بين قبائلها ، وإن ذكرت على أنها من صفات اليمن وجب أن تنسبها إلى حمير أو همدان .

سادسا : لهجات تميل إلى الجهر :

برهنت التجارب الحديثة على أن الصوت المجهور أوضح في السمع من نظيره

المهموس . فالجمهور يسمع من مسافة قد يخفى عندها المهموس . وجين يتحدث .  
 اثنان بعدت بينهما المسافة يحس السامع منهما بوضوح صوت « كالدال » ، حين  
 يقارن بنظيره المهموس وهو « التاء » ، وتظهر هذه الظاهرة واضحة جلية في  
 الحديث بالتليفون . ولا شك أن البيئة الصحراوية التي تنتشر فيها الأصوات  
 في مسافات شاسعة لا يعوقها عائق ، ولا يحول دونها حائل ، تتطلب الميل إلى  
 توضيح الأصوات بطرق عدة من بينها الجهر بالصوت ليصبح أكثر وضوحاً  
 في أذن السامع . لهذا نلاحظ أن لهجات القبائل البدوية تميل إلى جهر بعض  
 الأصوات ، في حين أن غيرها من قبائل الحضر تبقى على همسها :

( ١ ) فمثلا روى عن هذيل أنهم يقلبون في لهجتهم « الحاء » « عيناً » ،  
 فيقولون « اللحم الأحمر أحسن من اللحم الأبيض » ، أى اللحم الأحمر أحسن من  
 اللحم الأبيض ، وبلهجتهم روى أن ابن مسعود قرأ « عتي » في « حتى » ، فأرسل  
 إليه عمر رضى الله عنه أن القرآن لم ينزل على لغة هذيل فأقرى الناس بلغة  
 قريش . . . . . ومثل هذه الرواية عن عمر بعيدة الاحتمال لأنها تناقض التيسير في  
 القراءات القرآنية ، كما تخالف ما روى إليه الحديث الشريف « أنزل القرآن  
 على سبعة أحرف » ، إلا إذا أراد عمر أن ينهى ابن مسعود عن إرغام القرشيين  
 بغير ما يستطيعون ، وما تميل إليه ألسنتهم ، وذلك بإملاء لهجة من اللهجات  
 عليهم كلهجة هذيل في هذه القراءة .

وقد سمى القدماء هذه الظاهرة الصوتية فحجة هذيل . وتعد هذه القبيلة  
 من القبائل البدوية التي كانت مساكنها في الصحراء بعيدة عن البيئة المتحضرة .  
 ولهذا مالت لهجتها إلى الجهر ببعض الأصوات مثل قلب « الحاء » « عيناً » ،

إذ لا فرق بين « الحاء » و « العين » إلا في أن الأولى صوت مهموس والثانية نظيره المجهور .

( ب ) نسب القدماء لتميم وقيس عيلان ظاهرة صوتية سموها « المنعنة » وهي قلب الهمزة المبدوء بها « عيناً » ، وأنشد يعقوب :

فلا تلهك الدنيا عن الدين واعتمل لآخرة لا بد أن ستصيرها  
وقال ذو الرمة :

أعن ترسمت من خرقاء منزلة ماء الصبابة من عينيك مسجوم  
أراد الشاعر في البيت الأول « لا بد أن » ، وفي البيت الثاني « أن  
ترسمت » .

وقد جاء في رواية نسبت إلى الفراء قال :

إن بني تميم وقيس وأسد ومن جاورهم يجعلون ألف « أن » إذا كانت  
مفتوحة « عيناً » فيقولون :

أشهد عنك رسول الله

فإذا كسروا رجعوا إلى الهمزة !

فنحن نرى من هذه الروايات أنها جميعاً تجمع على قلب الهمزة المبدوء بها إلى « عين » ، ثم قيد هذا في رواية الفراء بأن تكون الهمزة مفتوحة ! ومثل هذا الاضطراب في الرواية ليس له من سبب سوى أن استقراء الرواة لأمثلة هذه الظاهرة الصوتية كان ناقصاً ، وأن الأمر في كل رواية لا يبدو أن يكون حكماً خاصاً مبنياً على مثل خاص سمعه الراوي دون استقراء لباقي الحالات . فاشتراط البدء بالهمزة ، أو أن تكون مفتوحة ليس له ما يبرره من الناحية

الصوتية . وإنما الذي يبدو أن يكون أقرب إلى الاحتمال هو أن هذه القبائل وكلها من البدو كانت تميل إلى الجهر بالأصوات لتجعلها واضحة في السمع ، أيا كان موضعها من السكامة ، وبأية حركة تحركت .

ويحسن إذن أن نعدّ هذه الظاهرة محاولة للجهر بالصوت ؛ لأن الهمزة ليست من الأصوات المجهورة أو المهموسة ، إذ مخرجها المزمار نفسه ، ولا عمل للوترين الصوتيين معها . وقد وصفناها قبلاً بأنها من الأصوات الشديدة ، إن لم تكن أشدها ، وأن أهل البادية يحققونها في لهجاتهم . فحين يبالغ في هذا التحقيق ، ويزاد أن تكون أوضح في السمع ، يستبدل بها أحد الأصوات الحلقية القريبة منها مخرجاً وصفة . وأقرب أصوات الحلق إليها هو « العين » ؛ لأن « العين » صوت مجهور ، وهو أقرب أصوات الحلق المجهورة للهمزة مخرجاً .

ويؤيد ما نذهب إليه أن هذه الظاهرة شائعة في بعض اللهجات الحديثة التي تتأخم الصحراء . وقلب الهمزة « عيناً » في هذه اللهجات غير مقيد بالبدء بها ، أو كونها بحركة بحركة خاصة .

### سابعاً : قبائل تميل إلى السرعة في نطقها :

تميل القبائل البدوية إلى السرعة في نطقها ، وتلهس أيسر السبل ، فتدغم الأصوات بعضها في بعض ، وتسقط منها ما يمكن الاستغناء عنه دون إخلال بفهم السامع . ولا شك أن حياة السكينة والهدوء في البادية لا تتطلب نشاطاً كذلك الذي قد يحتاج إليه حياة الحضر ، لما بها من صخب وأمور دنيوية

معقدة تدفع المرء إلى حل تلك المشاكل التي كثيرا ما تعترض الحضري بحكم بيئته ، وخضوعه لنظام من الحكم متعدد القوانين . ولا يستطيع المرء أن يشق طريقه بنجاح في حياة الحضر إلا بأن يظهر نشاطا في عمله ، وأن يلقي جهدا في موارد رزقة . أما البدوي الذي يقنع بالقليل ، ويخلد إلى السكينة والهدوء فحياته مليئة بالتراخي ، وبما يشبه الكسل حتى في نطقه . فهو يقتصد في الجهد العضلي وفي التنفس ، ويميل إلى الاختصار في القول ، لا يكاد يبدأ الكلام حتى ينهى . إنه لهذا كله صبغت لهجات البدو بصفات صوتية خاصة تخالف لهجات الحضري . وقد رويت لنا بعض مظاهر تلك الصفات الخاصة بالبدو في الأمور الآتية :

### ( ١ ) تأثير الأصوات المتجاورة بعضها ببعض :

قد تشترك معظم اللهجات في مثل هذه الصفة ، ولكن نسبة شيوعها بين البدو أكثر . لهذا روى الإدغام بصورة أوسع في الأوساط البدوية . وقد أشرنا إلى الإدغام في القراءات القرآنية آنفا . وإدغام صوت في آخر هو فناء الصوت الأول في الثاني ، بحيث ينطق بالصوتين صوتا واحدا كالثاني . وهذا هو التأثير الرجعي الذي أشرنا إليه من قبل ، وهو الأكثر شيوعا في اللغة العربية .

وفناء صوت في آخر هو أقصى ما يمكن أن يعرض لهذا الصوت من تأثير يغيره . على أن هناك درجات للتأثير بين الأصوات لا تصل إلى حد الإدغام يمكن أن تلخص في (١) :

(١) راجع تفصيل هذا في كتاب الأصوات اللغوية صفحة ١١١



## ١ - الجهر والهمس :

وذلك حين يلتقي صوتان أحدهما مجهور والآخر مهموس ، فيتأثر أحدهما بالآخر ليصبح الصوتان إما مجهورين أو مهموسين . ويغلب على اللغة العربية أن يتأثر الصوت الأول بالثاني ، فإذا كان الأول مجهوراً والثاني مهموساً أصبح الصوتان مهموسين ، وإذا كان الأول مهموساً والثاني مجهوراً أصبح الصوتان مجهورين . فإذا روى لنا أن من اللهجات العربية لهجة يقول أصحابها في « اجتمعوا » « اشتمعوا » ، أدركنا أن الأمر هنا لا يبدو أن يكون قلب « الجيم » المعطشة إلى صوت مهموس ، وذلك لتأثرها « بالتاء » بعدها فأصبح الصوتان بهذا مهموسين . وإذا قيل لنا إن من القبائل من يقلبون « الصاد » حين يليها « دال » إلى « زاي » مطبقة كما في « أصدق ، يصدفون » ، علمنا أن المسألة لا تزيد على أن تكون تأثر الصوت الأول للمهموس بالثاني الجهور فأصبح الصوتان مجهورين . وهذا هو التأثر الرجعي . أما التأثر التقدمي وهو الذي يتأثر فيه الصوت الثاني بالأول فهو قليل الشيوع بين اللهجات العربية ، رغم أن النحاة قد جعلوه قياسياً في صيغة « افتعل » ، حين تصاغ من بعض الأفعال التي فاؤها صوت مجهور أو مطبق : مثل ازدان واصطبر ... الخ<sup>(١)</sup> .

ويكفي دليلاً على قلة شيوع هذا النوع من التأثر ، أن النحاة قد قصره على أفعال خاصة ، يعرضون لها دائماً في كتبهم ؛ ولا تطرد هذه الظاهرة في كل فعل فاؤه صوت مجهور . ومع هذا فقد روى لنا أن بعضاً من تميم يقولون في

(١) انظر كتاب الأصوات اللغوية صفحة ١١٠

« معهم » « تمم » . ويدل هذا على أن تلك الطائفة من تميم قد أسكنوا أولاً « العين » من كلمة « معهم » ، فالتقت العين والهاء ، وبما أن « العين » صوت مجهور « والهاء » صوت مهموس ، تأثرت العين بالهاء فقلبت إلى نظيرها المهموس وهو الحاء ، وهذا تأثير رجعي شاع في اللهجات العربية ، ثم لم يقف الأمر عند هذا ، بل قد تأثر الصوت الثاني وهو الهاء بالأول وهو الحاء تأثراً كاملاً ، وفنيت الهاء في الحاء وصارت الكلمة « تمم » ، وهذا هو التأثير التقدمي النادر في اللغة العربية . فهذا المثال الذي روى لنا عن بعض من تميم قد مرّ في دورين : أحدهما شائع بين اللهجات والآخر نادر .

هذا وقد رويت لنا بعض لهجات غير منسوبة لأصحابها ، منها عرفنا أن التأثير التقدمي قد لعب دوراً هزيباً في اللهجات العربية : فقد قيل لنا إن من القبائل العربية من كانوا يقولون في « اجتمعوا » « اجدمعوا » وفي « الكعبة » « الجعبة » . ففي المثل الأول اجتمعت « الجيم » وهي مجهورة بالياء وهي مهموسة ، فتأثر الصوت الثاني بالأول وأصبح الصوتان مجهورين ، وفي المثل الثاني اجتمعت اللام وهي مجهورة بالكاف وهي مهموسة ، فتأثر الثاني بالأول وأصبح الصوتان مجهورين .

وقد نسب الرواة صفة الشذوذ لمثل هذه اللهجات ، وأنكروا عليها الفصاحة ، لأن الغالب الشائع في التأثير العربي هو ذلك النوع الذي نسميه بالتأثر الرجعي . والتأثر ، أياً كان نوعه ، مما يميل إليه البدو لأن فيه اقتصاداً في الجهد العضلي .

## ٢ — انتقال مجرى الصوت من الفم إلى الأنف وبالعكس :

فإذا اجتمع صوتان في كلمة أحدهما مجراه من الأنف كالميم والنون ، والآخر مجراه من الفم كباقي الأصوات ، مالت بعض اللهجات إلى قلب أحدهما بحيث يكون مجرى الصوتين من الأنف فقط أو من الفم فقط .  
وقد تحدثنا عن هذا آنفا بما فيه الكفاية<sup>(١)</sup> .

تلك هي أمثلة لتأثر الأصوات بعضها ببعض ، الذي يمكن أن يعد من خصائص البدو الذين يقتصدون في القول ويتلهسون أيسر السبل ، لما جلبوا عليه من السكينة والهدوء ، وبعد عن التعمل والتكلف .

### ( ب ) سقوط بعض أصوات الكلمات :

يعد هذا أيضاً من مظاهر الاقتصاد في الجهد العضلي ، أو إن شئت فسمه كسلاً ، ولكنه على كل حال يحقق الغرض بين المتكلم والسامع ، ولا يخل بهدف الكلام وهو الفهم . فقد ينطق البدوي دون تمهل في نطقه ودون انتظار لنهاية الكلمات ، فتصدر عنه الكلمات مبتورة الآخر ، وهو لا يحفل بهذا لأن كل ما يرمى إليه هو إتمام السامع ، وقد وصل إلى غرضه مع اقتصاد في الجهد وبطريقة أيسر وأسرع . وهذا هو السرّ فيما روي لنا من ترخيم في النداء ، وفي تلك اللهجة التي سماها القدماء قطعة طيء . ولا بأس أن نورد هنا طرفاً من تلك الروايات :

١ — روي أن قبيلة طيء كانت تميل إلى قطع اللفظ قبل تمامه فيقولون

( ) أنظر صفحة ٨٢

« يا أبا الحسكا » ويريدن يا أبا الحكم . وهذه الصفة تشارك الترخيم في أنها حذف آخر الكلمة ، إلا أن الحذف في الترخيم وارد على آخر الاسم المنادى ، أما هنا فقد يرد على كل كلمة ، اسما كانت أو فعلا ، منادى أو غير منادى . وقد روى القدماء البيت الآتي مثلا لقطعة طيء :

درس المنا بمتالع فابان فتقادت بالحيس والسربان  
(أى المنازل)

كما رووا قول الشاعر :

تضل منه إبلى بالهوجل في لجة أمسك فلانا عن قلى  
(أى عن فلان)

(٢) ذكر القدماء في معاييب اللخلخانية في لهجة الشجر وعمان أنهم قد مالوا إلى حذف بعض الأصوات ، فكانوا يقولون في « ما شاء الله » « مشالله » !  
(٣) روى أن قبيلتي خشم وز بيد من قبائل اليمن ، كانوا يميلون إلى حذف نون « من » الجارة إذا وليها ساكن فيقولون « خرجت ملسجد » !  
وقال شاعرهم :

لقد ظفر الزوار أافية العدا بما جاوز الآمال بالاسر والقتل  
(٤) روى أن بعضا من ربيعة كانوا يسقطون نون « اللذين » و « اللتين »  
وعليه قول الفرزدق :

أبني كليب إن عمى اللذا قتلا للوك وفككا الأغلالا  
وقول الأخطل :

هما التنا لو ولدت تميم لقييل نخر لهمو صميم

وقد نسبت هذه الصفة أيضاً إلى قبيلة بلحارث من قبائل اليمن .

(٥) نسب إلى قبيلة بلحارث حذف اللام والألف من « على » الجارة

إذا وليها ساكن ، فيقولون ( ركبت علفرس ) أى على الفرس .

(٦) روى أن بعضاً من ربيعة كانوا يلقون على المنسوب المنون بالسكون ،

فبدل أن يقولوا « رأيت محمداً » يقولون « رأيت محمدً » .

(٧) روى أن قبيلة طيء كانت تؤثر الوقف على تاء جمع المؤنث السالم

بقبلها « هاء » . وقد سمع بعضهم يقول : « دفن البناء من المكرماء » أى

« البنات من المكرمات » ١١

وليست هذه الظاهرة في الحقيقة قلب صوت إلى آخر ، بل هي حذف

الآخر من الكلمة . وما ظنه القدماء « هاء » متطرفة هو في الواقع امتداد في

التنفس حين الوقوف على صوت اللين الطويل ، أو كما يسمى عند القدماء ألف

المد . وهي نفس الظاهرة التي شاعت في الأسماء المؤنثة المفردة التي تنتهي بما

يسمى بالتاء الربوطة ، فليس يوقف عليها بالهاء كما ظن النحاة ، بل يحذف آخرها ،

ويتمد التنفس بما قبلها من صوت لين قصير ( الفتحة ) ، فيخيل للسامع أنها

تنتهي بالهاء .

ولقد تطورت تاء التأنيث في اللغات السامية على مراحل ليس هنا مجال

تفصيلها ، وإنما يمكن الإشارة إليها فيما يلي .

( أ ) — الأصيل في علامة التأنيث هو التاء للمتطرفة ، وقد ظلت على

حالتها في الفعل الماضي وجمع الإناث في اللغة العربية .

( ب ) — تطورت في الأسماء المؤنثة المفردة إلى خال وسطى وهي : النطق

بها تاء في حالة الوصل ، وحذفها في حالة الوقف .

( ح ) الطور الثالث لهذه العلامة هو حذفها مطلقا وصلا ووقفا في كل اسم مفرد مؤنث . وقد شاع هذا الطور الأخير في معظم اللغات السامية كالعبرية . وفي اللهجات العربية الحديثة . فحين نسمع كلمة مثل « الشجرة » في لهجات الكلام الآن يخيّل إلينا أن التاء المر بوظة قد قلبت « هاء » . والحقيقة أنها حذفت من النطق ، وامتد التنفس مع صوت اللين قبلها فسمع كالهاء .

ومما يؤيد ما نذهب إليه ، الإمالة في هذه الأسماء ، فقد رويت في قراءة الكسائي ، كما شاعت في كثير من اللهجات الغربية الحديثة . وهذه الإمالة لا علاقة لها بتاء التأنيث كما زعم بعض القراء ، بل هي مجرد إمالة الفتحة قبلها . فلا معنى إذن لخلاف القراء في هل تاء التأنيث ممالاة مع ما قبلها ، أو أن الممال هو ما قبلها فقط وأنها نفسها ليست ممالاة !! وجمهور القراء على كل حال يرون أن الممال هو الحركة قبلها .

وعلى هذا فإذا روى لنا أن من القبائل من كانوا يقفون على هذه التاء المر بوظة « بالتاء » ، مثل أولئك الذين سمع عنهم من قال « يا أهل سورة البقرت » . فأجابه آخر « ما أحفظ منها آيت » ، فليس هذا إلا احتفاظا بالأصل في ظاهرة التأنيث .

وقد احتفظت بعض اللهجات العربية الحديثة بهذا الأصل . وامتداد التنفس الذي يخيّل للسامع أنه هاء متطرفة هو في الحقيقة ما سماه القدماء بهاء السكت . وإننا حين نستعرض أحكام هاء السكت كما شرحها النحاة ، نراها تنحصر في الوقف على الكلمة التي تنتهي بصوت لين طويل كما في مثل « البناه » .

بوالسكرامه» ، أو صوت لين قصير كما في الوقف على المفردة المؤنثة بعد حذف تاء التأنيث منها، وكما في الوقف على الفعل المجزوم بحذف حرف العلة ، وما الاستفهامية .  
والغالب الشائع في اللغة العربية أن تلحق هاء السكت أصوات اللين القصيرة ( أي الحركات ) بشرط أن تكون جزءا من بنية الكلمة . وعلى هذا لا تلحق هاء السكت حركة الإعراب ، لأنها لا تلازم صورة واحدة كحركات البناء .

### ثامنا : قبائل تميل إلى الأناة وتحبس الأصوات :

وتلك هي التي تأثرت بالبيئة الحضرية التي تطلب الدقة في معظم مظاهرها الاجتماعية ومن بينها اللغة . فالحضرى يعنى بتخير لفظه ، وحسن أدائه ، ويعمد إلى نطق كل صوت دون تداخل بين الأصوات . فالجمهور يظل مجهورا ، والمهموس يحافظ على همسه ، لأن من مظاهر التحضر الباقية في القول وحسن النطق ومراعاة قواعده ، وذلك هو ما شاع في البيئة الحجازية على العموم ، وفي مكة بصفة خاصة .

فلا غرابة أن وصفت قريش بالفصاحة ، ونسب إليها الانسجام في النطق وحسنه . ولا غرابة أيضاً أن اتخذت اللغة العربية التي نظم بها الشعر ، ونزل بها القرآن الكريم معظم صفاتها الصوتية من البيئة الحجازية ، أو بعبارة أدق من لهجة قريش ، فتكونت منها اللغة النموذجية التي اعتزت بها كل القبائل ولا سيما الخاصة منهم ، وحافظوا على كل أثر أدبي كتب بهذه اللغة .

وليس معنى هذا أن الصفات الصوتية لهذه اللغة الأدبية هي نفسها الصفات

الصوتية لهجة قریش ، وإنما تشترك معها فقط في الكثير منها .  
وتختلف اللغة الأدبية عن لهجة قریش في القليل من الصفات الصوتية ،  
كتحقيق الهمزة الذي لم يكن شائعاً بين الحجازيين ولكنه يعدّ أصلاً في اللغة  
النموذجية التي رويت لنا بها أشهر القراءات ، وقرأ بها أشهر القراء ، وتلقاها  
الرواة في عصور التدوين معتزین بآثارها فخورین بخصائصها ، فوضعوا لها  
القواعد الدقيقة ، وجعلوها الأساس الذي يبني عليه ويقاس عليه ، وعدّوا  
ما عداها شاذاً . ولكنهم لسوء الحظ قد خلطوا فيما بعد بين هذه اللغة وما سمعوه  
من قبائل بدوية تعودت أن تغد إلى مدن العراق ، وتعود الرواة أن يرحلوا  
إليهم . وقد كان الرواة في الأخذ عن تلك القبائل متأثرين بفكرة خاطئة وهي  
أن كل ما كان يروي عن البادية حتى أواخر القرن الرابع الهجري يحتاج به  
ويرجع إليه .

وفي هذا خلط بين اللغة النموذجية التي لها صفاتها المنسجمة وألفاظها المتخيرة  
وقواعدها المضبوطة المطردة ، وبين لهجات متعددة الصفات متباينة النواحي .  
وقد أدى هذا إلى ذلك الاضطراب الذي نلاحظه في كثير من كتب النحو ،  
وتعدد الآراء في المسألة الواحدة ، ولو قد رجعنا إلى الأسلوب القرآني والشعر  
الجاهلي الصحيح النسبة ، وإلى الآثار الأدبية الصحيحة في صدر الإسلام تلك  
التي رويت عن خاصة العرب ، لو قد رجعنا إلى مثل هذا استنبطنا منه قواعدنا  
وأصول لغتنا ، لكفينا عناء ومشقة في دراسة تلك الآراء المتشعبة المتناقضة  
المضطربة التي ملئت بها كتب النحاة .



## ( لهجات متناثرة )

رويت لنا بعض صفات صوتية للهجات متناثرة في شبه الجزيرة . وبعض هذه اللهجات منسوبة إلى قبائل معينة ، والبعض الآخر لا نعرف لها صاحباً ، بل قد رواها الرواة مجهولة النسب ، مبتورة حيناً ومشوهة حيناً آخر . فلا عجب أن قد اعترى تلك اللهجات كثير من التحريف أو التصحيف . وسنعرض هنا طرفاً من هذه اللهجات ، دون أن نحاول تحقيق نسبتها إلى قبائلها ، وإنما سنكتفي بشرحها وتحليلها على ضوء ما يقرره علم الأصوات اللغوية :

أولاً : نسب الرواة لقبيلة حمير أنها كانت تقلب اللام في أداة التعريف « ميا » ، ورووا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال يخاطب بعض الحميريين « ليس مامبر امصيام في امسفر » ، وسموا هذا ظمطانية حمير .

ونسب الرواة أيضاً إلى قبائل سعد بن بكر وهذيل والأرد والأنصار أنهم كانوا يقلبون « العين » في الفعل « أعطي » إلى « نون » فيقولون « أنطى » ، وقد قرئ « إنا أنطياك الكوثر » . وقد سمي الرواة هذه الظاهرة بالاستنطاء .

وفي كل من هاتين الظاهرتين قد قلب صوت من أصوات النغم إلى آخر من أصوات الأنف . وقد تقدم القول إن قلب صوت من أصوات النغم إلى آخر من أصوات الأنف ، أو العكس ، أمر معترف به في معظم اللهجات ، وإنه في الغالب نتيجة أخطاء الأجيال الناشئة ، حين يحاولون التوفيق بين مجرى

الأصوات ، فيجعلونها إما من الفم أو الأنف فقط .  
ولكننا حين نستعرض الأمثلة التي رويت لنا بصددهاتين الظاهرتين  
لانكاد نعثر على مبرر صوتي قوى ، كذلك الذي لاحظناه من قبل في مثل  
نطق أطفالنا لكلمتي :

« دبان » و « جل » حين يقلبونهما إلى « دمان » و « جبل » .  
فكيف تأتي إذن أن قلبت لام التعريف إلى « ميم » وهما لا يختلفان في  
المجرى فحسب ، بل وفي المخرج أيضاً ؟؟ وكذلك كيف تأتي أن قلبت العين  
إلى نون في « أعطى » مع اختلافهما في المجرى والمخرج أيضاً ؟؟  
لهذا كله نرجح أن الزواية مبتورة أو ناقصة ، ولا يستطيع الحكم على  
مثل هاتين الظاهرتين من مثل أو مثلين ردها الرواة .

وليس هناك ما يمكن أن يبرر هاتين الظاهرتين سوى اشتراك « اللام  
وليم والنون والعين » في الصفة . فكل من هذه الأصوات صوت مجهور  
متوسط لا هو بالشديد ولا بالرخو . على أنه إذا أمكن أن نتلمس أسباباً أخرى  
في ظمطانية حير ، فمن العسير أن نبرر استنطاء هذيل في فعل واحد من بين  
أفعال اللغة . وليس في مجاورة العين للطاء أمر غير عادي ، فقد رويت هذه  
المجاورة في كثير من الأمثلة ومع هذا فلم ينسب لها استنطاء . فلم اختصت  
« أعطى » بهذه الصفة ، في حين أنها لم تنسب لأية كلمة اشتقت من  
المواد الآتية :

« عطش ، عطس ، عطل ، عطر ، عطن ، عطف » ؟!  
ويظهر أن الأمر لم يكن مقصوراً على الفعل « أعطى » ، بل يتعلق

ينطق كل « عين » سواء وليها « طاء » أو صوت آخر . فلعل من القبائل من كانوا ينطقون بهذا الصوت بصفة خاصة نظقا أنفصيا ، وذلك بأن يجعلوا مجرى النفس معه من الفم والأنف معاً ، فتسمع العين متمزجة بصوت النون وليست في الحقيقة نونا ، بل هي « عين » أنفصية<sup>(١)</sup> . وعلى هذا فيمكن أن يقال إن الرواة قد سمعوا هذه الصفة ممثلة في الفعل « أعطى » فأشككت عليهم ، ولم يصفوها لنا على حقيقتها .

أما في حالة طمطمانية حمير فإن أداة التعريف في اللغات السامية قد رويت حيناً « باللام » كما في العربية ، وحيناً آخر « بالنون » كما في العبرية . فقد أجمع المستشرقون على أن أداة التعريف العبرية كانت في الأصل « هَن » . واستدلوا بتشديد أوائل الأسماء المعرفة في اللغة العبرية على إدغام النون في « هَن » ، في الحروف الأولى من الأسماء ، بشرط ألا تكون حروف حلق . فليس بغريب بعد هذا أن تروى أداة التعريف في بعض اللهجات السامية « بالميم » كما في طمطمانية حمير ، لأن العلاقة الصوتية بين « اللام والنون والميم » واضحة جلية : فهي أكثر الأصوات شيوعاً في اللغات السامية ، كما أنها من الأصوات المتوسطة الشبيهة بأصوات اللين . ولهذا كانت من أسبق الأصوات في نطق الطفل . فهذه الأصوات الثلاثة أصوات قديمة سبقت في نطق الإنسان الأول غيرها من الأصوات ، وقد استغلت في ظواهر لغوية متعددة ، فهي أحياناً تعبر عن النفي وأحياناً تفيد التعريف . فهي مجموعة متميزة بين أصوات اللغة يحل بعضها مكان بعض ، وقد تنقلب جميعها إلى أصوات لين طويلة .

(١) أنظر كتاب الأصوات اللغوية صفحة ٦٣

ثانيا : صوت اللين المركب الذى يسميه المحدثون « Diphthong » قد  
 مرّ في اللغة العربية في أدوار ثلاثة : « ai » أو « au » ، ثم تطور الأول  
 إلى e : والثانى إلى o : وأخيراً صار الأثنان a : .

ففي الأفعال المعتلة الآتية :

بان . كان . رمى . سما

بدأت أولا على الصور الآتية بالترتيب :

بَيْنَ . كَوْنِ . رَمَى . سَمَوِ

Samau Ramai Kauna Baina

ثم صارت :

بَيْنَ . قَوْلِ . رَمَى . سَمَوِ

Samo : Rame : Ko : na Be : na

ثم صارت جميعها بألف لين خالصة كما نعهدها الآن . على أن القبائل قد  
 اختلفت في هذا ، فمنها قبائل احتفظت بالطور الأول ، وأخرى وصلت إلى الدور  
 الثانى ووقفت عنده . أما الطور الأخير فهو أحدثها وأفصحها لكثرة شيوعه بين  
 القبائل المشهورة ، ولأنه الصفة التى شاعت في اللغة الأدبية النموذجية ، وهذا هو  
 السرفى الروايات الآتية :

روى أن قبائل بلحارث وخشم وكفانة تلزم المثنى الألف ، وعلى هذه  
 اللهجة قول القائل :

« قد بلغا في المجد غابتاهما »

وروى أيضا أنهم كانوا يقلبون كل ياء بعد فتحة ألفا فيقولون في « جئت

إليك « جئت إلاك » . وقد قال الشاعر « طاروا علاهن فطر علاها » أي .  
« عليهن وعليها » .

وهذه ال لهجة هي الدور الثالث لصوت اللين المركب ، ولهذا تعد من أحدث .  
مظاهر اللهجات العربية . إذ يظهر أن الأصل في المثني التزام الياء ، ثم تطور هذا  
إلى الإمالة التي لا تزال شائعة في معظم اللهجات العربية الحديثة ، وأخيراً صار  
لمثني بالألف (١) .

وقد اتخذت اللغة النموذجية أحوال المثني من لهجات مختلفة ، ثم خصص  
النحاة حالة الياء بالنصب والجر ، وحالة الألف بالرفع .

ولقد قررنا قبلاً أن اللغة النموذجية قد اتخذت بعض صفاتها من اللهجات  
متعددة . لهذا ترجح أن أحكام المثني كما رويت لنا في اللغة الأدبية النموذجية  
ترجع في الأصل إلى أكثر من لهجة واحدة .

ومثل هذا يمكن أن يقال في لهجة « فزارة » وبعض « قيس » حين  
يقفون على الألف للتطرفة بالياء ، فيقولون في « الهدى » « الهدى » . فلهجة  
فزارة هي الدور الأول ، أما الدور الثاني فهو الإمالة ، وأخيراً أصبحت الكلمة  
كما نعهدها الآن بألف اللين الخالصة ، وهو أفصح الجميع وأكثرها شيوعاً  
بين القبائل .

وعلى هذا إذا قيل لنا إن قبيلة هذيل كانت تقول « عَصَى » بدل  
« عصاي » ، علمنا أن الأمر لا يبدو أن قبيلة هذيل التزمت الدور الأول  
لصوت اللين المركب ولم يتطور فيها .

(١) انظر الخصائص الجزء الأول صفحة ٤١٢

وبهذا يمكن أن تفسر قول شاعرهم :

مسبقوا هوىً وأعنقوا لهواهمو فتخرموا ولكل جنب مصرع  
ويظهر أن الوقف على أصوات اللين المتطرفة ، كان عنسيراً على اللسان  
العربي ، قليل الشيوخ في معظم اللهجات العربية ، فقد روى أن بعضاً من  
تميم كانوا يفتنون على مثل كلمة « الهدى » قائلين « الهدو » ، وبعض من قبيلة  
طىء كانوا يقولون « الهدأ » بالهمزة . فإذا أضيف إلى هذا كيف كان معظم  
القبائل يفتنون على ما آخره صوت لين بهاء السكت ، أدركنا بسهولة كيف فرت  
معظم اللهجات العربية من الوقف على أصوات اللين طويلها وقصيرها .

### ثالثاً : اختلف موضع النبر :

تخضع اللغات إلى قواعد خاصة في موضع النبر من الكلمة أو الجملة . والنبر  
هو الضغط على مقطع من المقاطع بحيث يتميز عن غيره من مقاطع الكلمة  
ويزداد وضوحه في السمع<sup>(١)</sup> .

ولم يعن المتقدمون بالبحث في مواضع النبر العربي ، وإنما هي إشارات  
رووها في ثنايا كتبهم نستطيع منها الحكم على أثر النبر فيما يعرض لبعض  
اللهجات من ظواهر صوتية . وقد اختلفت مواضع النبر في اللهجات العربية  
الحديثة اختلافاً يجعلنا نرجح أن اللهجات القديمة قد اختلفت أيضاً في هذا .  
وحين نعتمد على قراءة المجيدين في العصر الحاضر ، ونحاول استنباط مواضع  
النبر في قراءتهم ، نستطيع أن نتبينه في واحد من مواضع ثلاثة :

(١) أنظر كتاب الأصوات اللغوية صفحة ٩٧

إما أن يكون على المقطع الأخير بشروط خاصة ، أو على المقطع الذي قبل الأخير بشروط معينة أيضاً ، فإذا لم تتوفر شروط هذا أو ذاك كان النبر على المقطع الثالث حين نعدّ المقاطع من نهاية الكلمة .

ومثال الموضوع الأول « المستقر » حين نقف على قوله تعالى « إلى ربك يومئذ المستقر » ، « نستعين » حين نقف عليها في قوله تعالى « إياك نعبد وإياك نستعين » .  
ومثال الموضوع الثاني .

يكتبُ ، بحرٌ ، أصغرُ

ففي هذه الأمثلة نلاحظ أن النبر يقع على المقطع الذي قبل الأخير وهو على الترتيب .

تُ ، ، بَحٌّ ، غَ

ومثال الموضوع الثالث وهو النادر الشيعوع في اللغة العربية كما نسمعها من فواه القراء في عصرنا الحاضر :

ضربَ ، ، اشتهرَ ، اجتمعوا

ففي هذه الأمثلة نلاحظ أن النبر يقع على المقطع الثالث من الخلف وهو على الترتيب .

ضَ ، ، تُ ، دَ

والذي نلاحظه بوجه عام هو أن اللهجات العربية تميل في حالة الوقف إلى نقل النبر إلى المقطع الذي قبله ، فحين نقف على الأمثلة الآتية :

يكتبُ ، ، خالدٌ ، مستفهمٌ

نلاحظ أن النبر ينتقل من المقاطع الآتية :

إِ ، ا ، هـ  
 إلى المقاطع التي قبلها وهي :  
 بِكْ ، خَا ، تَفْ

وذلك لأن من يريد الوقف لا ينتظر بنطقه حتى ينتهي من جميع المقاطع، بل يبتز غالباً المقطع الأخير أو جزءاً منه ، من آخر كلمة في جملة . وقد ترتب على هذا تلك الظاهرة التي سماها القدماء الوقف بالسكون . ففي الكلمات المنونة يحذف تنوينها ، والكلمات المحركة الآخر سواء كانت تلك الحركة حركة إعراب أو بناء ، تحذف حركتها . فالقبائل بصفة عامة تقف على الكلمات الآتية .

خَالِدٌ ، مَعْلَمٌ ، يَنْزِلُ ، أَمْسِ  
 هكذا :

خَالِدٌ ، مَعْلَمٌ ، يَنْزِلُ ، أَمْسِ

ونلاحظ في حالة الوقف انتقال موضع النبر إلى المقطع الذي قبله في معظم الحالات . على أن معظم القبائل قد اختلفت المنون المنصوب بحكم خاص ، وهو الوقف عليه بالألف ، إلا قبيلة ربيعة التي اشتهر عنها الوقف عليه بالسكون أيضاً . وقد روى لنا أن بعض القبائل قد التزموا في لهجاتهم حكماً خاصاً في حالة الوقف مثل :

(١) — روى أن قبيلة الأزدي من القبائل اليمنية كانت تقف على الكلمات المنونة بحركة من جنس حركة آخر الكلمة فيقولون : جاء خالدو ، رأيت خالداً ، صررت بخالدي .



وعلى هذا فلا شك أنهم كانوا يبقون النبر في موضعه في حالة الوقف ، وهو في كل من الأمثلة الثلاثة المتقدمة « ا » في خالد .

( ب ) — كما روى أن قبيلة سعد بن بكر كانت تبق النبر في موضعه أيضا في حالة الوقف ، ولكنهم مع هذا كانوا يحدقون التنوين . ولم يكن من الممكن حذف التنوين وبقاء النبر في موضعه إلا بتشديد الحرف الأخير من الكلمة ، وإلا خالف هذا ما عرف عن نسيج المقطع الأخير من الكلمات العربية حين يكون منبورا . فشرط للمقطع الأخير حين يقع عليه النبر أن يكون أحد نوعين :  
صوت ساكن + صوت لين طويل + صوت ساكن .

أو :

صوت ساكن + صوت لين قصير + صوتان ساكنان

ففي حالة الوقف على مثل « خالد » بالسكون ، مع بقاء النبر في موضعه ، يجب أن تصبح الكلمة على أحد وجهين : إما ( خالد ) أو ( خاليد ) .  
وقد اتخذت لهجة سعد بن بكر الوجه الأول وهو « خالد » في حالة الوقف ، وذلك حين يكون المقطع الذي قبل الأخير متحركا ، أما إذا كان ساكنا فالنبر لا يتغير موضعه في حالة الوقف في أية لهجة من اللهجات . ولهذا روى أن لهجة سعد بن بكر تقول ( هذا بكر ) في حالة الوقف ، كما هو الشائع في اللهجات الأخرى .

هذا وقد روى أن قبيلة سعد بن بكر لا يلتزمون لهجتهم هذه في حالة الوقف على ما آخره همزة مثل « رشأ » ، لأن تضعيف الهمزة ثقيل على السمع ويحتاج إلى جهد عضلي كبير . وقد سمي القدماء هذه الظاهرة الوقف بالتضعيف ، ولم

يرو عن أحد من القراء ، إلا ما نسب لعاصم في قوله تعالى « وكل صغير وكبير مستطر » ، وما نسب لأبي عمرو « وتواصوا بالصبر » ، كما قرأ سلام « والعصر » .  
ويظهر أن هذه القبيلة قد التزمت في معظم الأحيان نبر المقطع الأخير من الكلمة في حالة الوقف عليها ، مما أدى إلى تضعيف الحرف الأخير .

وهناك قبائل أخرى يضغطون على المقطع الأخير من الكلمة في حالة الوقف عليها ، وألئك هم الذين يقفون بما سماه النحاة الوقف بالنقل . ففي مثل الوقف على بكر وعمرو ، ينقلون حركة الراء إلى الساكن قبلها ويقولون « هذا بكر » وسررت بيكر الخ ... وقد ترتب على التزام نبر المقطع الأخير في لهجتهم شيئان : أولهما ما سمي بالنقل وثانيهما تضعيف الحرف الأخير . فأولئك الذين يقفون بالنقل يضغطون في نفس الوقت الحرف الأخير من الكلمة . وعلى هذا فالنطق الصحيح لهذه القبائل هو أنهم كانوا يقولون « هذا بكر » ، ولم يفتن النحاة لهذه الصفة وظنوها الوقف بالنقل فقط .

ومما يؤيد ما نذهب إليه تلك الرواية التي رويت عن أبي عمرو في وقفه على قوله تعالى « وتواصوا بالصبر » . وقد ذكرها النحاة مرة في الوقف بالتضعيف ، ومرة أخرى حين أشاروا إلى الوقف بالنقل ، مما يدل على أن كل وقف بالنقل يستلزم التضعيف ، ولكن ليس كل وقف بالتضعيف يتضمن نقلا ، إلا في لهجة « لحم » وبعض من « طيء » أولئك الذين يلتزمون النقل ولو كان الحرف الذي قبل الأخير متحركا . وقد مثل النحاة للهجة لحم وطيء أولا بقول الشاعر :

من ياتم للخير فيما قصده      تحمد مساعيه ويعلم رشده

وثانيا بقول القبائل :

« والكرامة ذات أكرمكم الله به » .

ويجب أن تشدد الهاء في كل من « قصدة ، رشدة ، به » لأنه لا نقل  
بغير تضعيف .

( ح ) — اختلفت القبائل العربية في أحكام الفعل المضعف ، أى الذى  
فيه العين واللام من نوع واحد ، مثل « رد ، عد » . وليس لهذا الاختلاف من  
سر ، سوى اختلاف موضع النبر بين هذه القبائل .  
وقد نظر النحاة إلى مثل هذا الفعل من وجهين : أولاً حين يكون مجزوماً ،  
وثانياً حين يتصل بضمير رفع :

أولاً : رووا لنا أن لهجة الحجازيين تلتزم فك الإدغام في حالة الجزم  
فيقولون « لم يردد » ، فى حين أن بنى تميم يقولون الإدغام ويقولون « لم يرد » .  
وعدّ النحاة كلا من الوجهين جائزاً صحيحاً .

أما السر فى التزام الحجازيين فك الإدغام فهو أنه يترتب على الجزم عادة  
نقل النبر من موضعه إلى المقطع الذى قبله ، لأن الجزم يختصر أواخر الكلمات .  
ففى قولنا « يكتب » نلاحظ أن النبر على المقطع « ت » ، ولكن إذ جزم الفعل  
كما فى مثل « لم يكتب » ، انتقل النبر إلى المقطع « يك » . وعلى هذا كان من  
الواجب فى حالة جزم الفعل « يرد » أن ينتقل النبر من المقطع « رد » إلى المقطع  
« ي » ، لتصبح الكلمة لم « يرد » ، ولكن التباس هذا الوضع بوضع الفعل  
المعتل العين ، والحرص على إظهار تضعيف الفعل ، جعل العرب من الحجازيين  
يفكرون الإدغام ليتجمعوا بين أمرين : نقل النبر إلى وراء بسبب الجزم ،  
وإظهار تضعيف الفعل .

وهكذا جاء الوضع « لم يردُّد » . ولهذا عاد الحجازيون إلى الإدغام حين بقي  
النبر في موضعه ، مثل « لم يردُّوا » .

أما بنو تميم فلم ينقل النبر في لهجتهم بسبب الجزم وبهذا بقي الإدغام . فكانوا  
يقولون في حالة الوقف « لم يردُّد » ، أما في الوصل فكانوا يحركون الدال الثانية  
بحركة لالتقاء الساكنين ، سواء كانت تلك الحركة فتحة أو ضمة أو كسرة على  
اختلاف بين النحاة . وربما كان هذا هو الموضع الوحيد الذي يتخلص فيه من  
التقاء الساكنين بتجريك الثاني منهما .

نخلص من كل هذا إلى أن فك الإدغام عند الحجازيين في مثل « لم يردد »  
ليس له سر ، سوى نقل النبر من موضعه ، فلما جرى بالأمر من هذا الفعل كان  
من المعقول أن يأتي على هذا الوضع « اردُّد » ، في حين أن الأمر عند بني  
تميم هو « رُدُّد » .

أما تلك اللهجة التي رويت عن « عبد القيس » واختص بروايتها  
السكسائي فهي أنهم كانوا يقولون في حالة فعل الأمر « أرُّد » ، « أغضُّ » .  
ومن المحتمل هنا أن يكون هذا الوضع من أنواع القياس الخاطيء ، رغبة في اطراد  
الصيغ والأوضاع في اللهجة الواحدة . وبهذا قد قاس بنو عبد القيس الفعل  
الأمر هنا ، على الأمر من الفعل الثلاثي الصحيح الذي يلتزم فيه البدء بهمزة  
الوصل . ومثل هذا القياس الخاطيء ، كمثلته في قياس أطفالنا تأنيث الوصف « أحر »  
بزيادة علامة التأنيث الشائعة وهي التاء فيقولون « أحرمة » . وقد ينمو مثل هذا  
القياس الخاطيء ، في بعض البيئات المنعزلة ويصبح لهجة من اللهجات .

ثانيا : أما في حالة اتصال الفعل المضعف بضمير الرفع فقد أجمع النحاة على

وجوب فك الإدغام في الكثرة الغالبة من اللهجات العربية . وربما لم يكن هذا إلا عن طريق قياس أمثال « ردّ » على الأفعال الصحيحة ، وبهذا يقال « رددت » كما يقال « ضربت » . وإذا أمكن قبول قول النحاة إن لام الفعل الصحيح قد سكنت حين اتصاله بضمير الرفع لكراهة توالي أربعة متحركات فيما هو كالكلمة الواحدة ، فليس من المقبول أن يلتزم هذا في مثل « ردّ » الذي لا يترتب على اتصاله بضمير الرفع أن يتوالي أربعة متحركات .

فالسرا إذن في فك الإدغام ، هو القياس على الفعل الصحيح لا أكثر ولا أقل . وعلى هذا فما روى لنا من أن ناسا من بكر بن وائل كانوا يقولون « رددت » ، قد جاء على الأصل . وقد ترتب على اتصال الضمير بالفعل في لهجة بكر بن وائل ، انتقال النبر إلى الأمام ، من المقطع « ردّ » إلى المقطع « د » . وانتقال النبر إلى مثل هذا المقطع قد يطيل صوت اللين فيه فيصبح « دا » . ولهذا جاءت بعض الروايات بأن لهجة قيس عيلان تزيد ألفا بعد المدغم قبل الضمير ، فيقال « مدآت » . وإذا نطق مثل هذا الوضع الأخير بالإمالة ، نتج ذلك الوضع الذي التزمته معظم اللهجات العربية الحديثة والذي نلاحظه في لغة كلامنا .

هذه إشارات منها نرجح أن القبائل العربية لم تلتزم في لهجاتها قانونا واحدا لموضع النبر من الكلمات . ولعل بحوث المستقبل تكفل لنا الكشف عن صفات أخرى للنبر في اللهجات العربية القديمة . وليس اختلاف مواضع النبر فيها بالأمر الغريب ، بل هو طبيعي . وإنما لنشهد الآن آثاره في اللهجات الحديثة . فموضع النبر في لهجة الصعيد يختلف عن موضعه في لهجة القاهريين . وسكان الوجه البحري ، لا في لهجات الكلام فحسب ، بل حتى في النطق

بالعربية الفصيحة أيضا . ففي مثل الكلمات :

رقبة ، عملهم ، ربنا

يضغط أهل الصعيد على المقاطع الآتية :

قَ ، مَ ، رَبُّ

في حين أن أهل القاهرة والوجه البحرى يضغطون على المقاطع :

رَ ، عَ ، بَ

— ٤ —

## أشهر القبائل في اللهجات العربية

حين نستعرض أسماء القبائل التي ذكرت في رواية اللهجات ، نراها تشمل طائفة كبيرة من القبائل العربية المشهورة في التاريخ والأدب . على أن روايات اللهجات قد خلت في كثير من الأحيان من ذكر أسماء قبائل معينة إليها تنسب اللهجة . وقد تفاوتت القبائل في نسبة اللهجات إليها ، فمنها قبيلة نسبت إليها صفة واحدة وأخرى نسبت إليها صفات عدة . وربما كانت أشهر القبائل في روايات اللهجات قبائل ثلاث هي : تميم وهذيل وطىء ، وكلها من القبائل البدوية التي عاشت في الصحراء ، ونسب الرواة لها الفصاحة وإجادة القول ، واجتجوا بأقوالهم وأخذوا عنهم في رواياتهم عصره تدوين اللغة . ولكن الغريب أن نلاحظ أن هذه القبائل الثلاثة ، كانت من أقل القبائل نصيبا في الشعراء الجاهليين ، إذ لم ينسب إلى واحدة منها شاعر من شعراء الطبقة الأولى ،

وإنما نسب إليها شعراء مقلون ، روى عنهم القليل من الشعر الجاهلي . فقد نسب التميم : « أوس بن حجر ، والأسود بن يعفر ، والبراق بن روحان ، وسلامة ابن جندل ، وعلقمة بن عبيدة ، وعمرو بن الأهم » .

ونسب لقبيلة هذيل من الشعراء الجاهليين : « المنتحل بن عويمر ، وعامر ابن حليس ، وخويلد بن خالد ، وأبو ذؤيب الهذلي » .

ونسب لقبيلة طيء : « حاتم الطائي ، وإياس بن قبيصة ، وأبو زيد الطائي ، والطرماح بن حكيم » .

والروايات الأدبية التي رويت لنا عن العرب قبل الإسلام وفي صدر الإسلام ، تمثل لنا كما أشرنا آنفا لهجة واحدة منسجمة الصفات ، قد ترفعت عن معظم صفات اللهجات التي رويت لنا ، فقد دخلت من العنونة والكشكشة والعججة ونحو ذلك ، مما نفر منه خاصة العرب قبل الإسلام وبعده . وقد اتخذت تلك اللغة الأدبية معظم صفاتها من لهجة قريش مع ما استحسنته خاصة العرب من صفات اللهجات الأخرى . فهي إذن مزيج من عدة صفات نسبت إلى قبائل عدة ، ولكنه مزيج منسجم القواعد والأصول ، نراه في أسلوب القرآن الكريم ، كما نراه في الآثار الأدبية الأخرى من شعر ونثر صحت روايته وتحققت . وكما يسرت القراءات على العامة من العرب نطق القرآن الكريم بما تستطيعه ألسنتهم . وبما يوافق لهجاتهم ، كان من الطبيعي أيضا أن ينطقوا الآثار الأدبية نطقا يوافق ألسنتهم وما جبلوا عليه من لهجات ، لأن تلك الآثار الأدبية وإن كتبت بلغة الخاصة ، شاع تداولها بين العامة ، وتغنوا بها واعتزوا بما اشتملت عليه من جمال الأسلوب والمعاني . فلم تكن في تداولها وقفا على الخاصة من العرب ،

بل كان يتلقفها العامة أيضا بشغف كبير ، ويرددونها في أغانيهم ومجالسهم ،  
وإن لم يفهموا الكثير منها .

وإذا تصورنا تلك القبائل المتعددة اللهجات ، تردد الآثار الأدبية في أغانيها  
ومسامراتها ، أدركنا بسهولة أن لا بد من وقوع بعض الاختلاف في النطق .  
فلما جاء عصر تدوين اللغة وأخذ الرواة عن قبائل عدة ، حاءتهم أشعار الشاعر  
الواحد بروايات عدة في بعض النواحي . وربما كان هذا أحد العوامل التي  
اختلفت من أجلها روايات الآثار الأدبية من الناحية الصوتية . ولنضرب هنا  
بعض الأمثلة التي توضح ما نرمي إليه .

تصور معي أن رجلا من القبائل التي تميل إلى الإدغام وتأثر الأصوات  
بعضها ببعض ، ينشد قول امرئ القيس :

وإذ هي تمشي كمشى النزي ف يصرعه بالكثيب البهر  
فلا شك أننا سنسمعه منه :

وإذ هي تمشي كمشى كجى النزي ف يطرعه بالكثيب البهر  
أى أنه سيقلب الشين في « مشى » إلى جيم شديدة التعطيش ليجعلها مجهورة كالياء .  
كما أنه يشم « الصاد » فتصبح تلك « الظاء » المعروفة بين العوام في مصر ، لأن  
الراء التي تليها صوت مجهور . بل قد ينطق بهذا البيت رجل ممن اشتهروا بالعجمجة  
فتسمع منه كلمة « كمشى » « كجج » ، أى يقلب كلا من الياء والشين جيم .  
وتصور أيضا أحد العامة في قبيلة من تلك التي تؤثر الإدغام ولا تحقق  
الأصوات ، ينطق بقول امرئ القيس :

غدائره مستشزرات إلى العلا تضل للدارى في مثنى ومرسل



فلا شك أنه سيتلمس أيسر الطرق للنطق بقلك الكلمة « مستشزرات » ،  
 التي اتخذها علماء البيان مثلا للتعقيد اللفظي ، ويقول « مستزرات » ، بادغام  
 الشين في الزاي ، بل وربما قال « متزرات » ، بادغام السين في التاء أيضا .  
 كذلك حين نتصور رجلا من ربيعة ينشد بيت امرئ القيس :  
 أغرك مني أن حبك قاتلي وأنك مهما تأمرى القلب يفعل  
 فلا شلا أنه سيقول :

أغرثش مني أن حبثش قاتلي وأنثش مهما تأمرى القلب يفعل  
 ولا يترتب على هذا إخلال بوزن البيت ، كما قد يتبادر للذهن ، لأن الكاف  
 قد قلبت إلى صوت واحد (١) .

بل ويقول أيضا في مطلع معلقة امرئ القيس :  
 قفا نبثش من ذكرى حبيب ومنزل  
 فإذا أنشد بدوى ممن يميلون إلى الادغام قول امرئ القيس :  
 إذا المرء لم يخزن عليه لسانه فليس على شيء سواه يخزان  
 فنسمع منه الفعل [ يخزن ] [ يغزن ] بالعين لا بالحاء .  
 أو قول النابغة :

لئن كنت قد بلغت عنى وشاية لمبلغك الواشى أغش وأكذب  
 فنسمع منه كلمة [ أكذب ] [ أجذب ] ، بحجم قاضرية .  
 أو قوله :  
 فإن أك مظلوما فعبد ظلمته وإن تك ذا عتبي فمثلك يعتب

فسنسمع الفعل [يعتب] [يحتب] ، بالحاء لا بالعين .

أو قول طرفة بن العبد :

كالجوابي لا تني مترعة لقرى الأضياف أو المحتضر

ثم لا يخزن فينا لحمها إنما يخزن لحم المدخر

فسنسمع البيتين هكذا :

كالجوابي لا تني مدرعة لقرى الأضياف أو المحتضر

ثم لا يغزن فينا لحمها إنما يغزن لحم المدخر

ثم تصور شاعرا كزهير بن حباب وقد ربي في قبيلة كلب من قضاة ، أولئك الذين اشتهروا « بالوهم » « والوكم » ، قد نظم قصيدته الحماسية التي يقول

فيها :

أبي قومنا أن يقبلوا الحق فاتتها إليه وأنياب من الحرب تحرق

فلما وصل إلى قوله من هذه القصيدة :

فما برحوا حتى تركنا رئيسهم يعفر فيه المضرحي المذلق

سمعنا قومه ينشدون هذا البيت بكسر الهاء في رئيسهم .

تلك هي أمثلة قليلة ، مما قد تصنعه اللججيات في الآثار الأدبية ، ومما قد يترتب

عليه اختلاف في روايات البيت الواحد ، بل وقد يترتب عليه نشأة مترادفات

للمعنى الواحد .

## الفصل الخامس

- ١ -

### بنية الكلمات ودلالاتها في اللهجات

قد تبين لنا من بحث الصفات الصوتية المختلفة بين القبائل أنه قد يترتب على معظمها تغيير في بنية الكلمات ، دعت إليه العادات الصوتية لكل قبيلة منهم ، يلتزمونه في مواضعه ولا يستطيعون غيره إلا مع كثير من التكلف والعنت . والعربي في لغة تخاطبه يطلق نفسه على سجيته ، وينطق كما تعود في بيئته ، فتبرز في نطقه تلك الصفات الخاصة التي أشرنا إليها آنفاً . ويحسن هنا أن نضيف إلى ما تقدم من صفات ، شيئاً عن صوت القاف الذي أجمعت الروايات على أنه مجهور ، ومع هذا فنحن نسمعه الآن في أفواه المجيدين من قراء القرآن الكريم ، مهموساً<sup>(١)</sup> . وقد مرّ هذا الصوت في عدة أدوار ، وأصابه هذه تطورات بعضها قديم يرجع إلى اللهجات العربية القديمة ، والآخر حديث . فقد روى أن بعض قبائل « اليمن » وبعضاً من « تميم » ، كانوا ينطقون بالقاف « جيا » قاهرية ، أو مهموس الجيم القاهرية أي الكاف . ونطق القاف كما أحدث من نطقها جيا قاهرية ، إذ يظهر أن مخرجها قد انتقل أولاً في بعض

(١) أنظر كتاب الأصوات الفوقية صفحة ٧٢ .

لهجات اليمن من ، وضع الالهة إلى أقصى الحنك ، فصادت هناك نظيراً لها في  
الجهر والشدة وهي الجيم القاهرية ، ثم همست فأصبحت الكاف . وهمس القاف  
تطور حديث لأن القاف الأصلية كانت صوتاً يشبه الغين ، فلما همست أصبحت  
تلك القاف التي نسميها الآن من قراء العصر الحاضر .

وتغير بنية الكلمات نتيجة تغير صوت من أصواتها ، يعد في معظم الأحيان  
تغيراً طفيفاً لا يصعب معه التعرف على الكلمة في صورتها الأصلية ، أو بعبارة  
أدق في صورتها الأكثر شيوعاً ، والأفصح استعمالاً .

وإن نسب القدماء بعض الروايات لقبائل معينة ، لقد أهملوا ذكر القبائل  
في كثير من رواياتهم . فهناك أوضاع مختلفة للكلمة الواحدة رووها على أنها  
كأها صحيحة جائزة ، في حين أنه من السهل اليسير الحكم على تلك الأوضاع  
بأنها تنتمي إلى أكثر من لهجة من لهجات العرب . وقد ملئت معاجم اللغة  
بكلمات جوزوا فيها أكثر من وضع واحد أو صيغة واحدة . ولنضرب مثلاً  
لما جاء في معظم المعاجم العربية ، حين الإشارة إلى كلمة « أصبع » (١) فقد  
روى فيها عشر لهجات هي :

إَصْبَعُ ، إِصْبِعُ ، إِصْبُغُ ، أَصْبِعُ ، أَصْبِغُ ،  
أَصْبُغُ ، أَصْبِغُ ، أَصْبِعُ ، أَصْبِغُ ، وَأَخيراً أَصْبُوعُ .

ويظهر أن بعض هذه اللهجات كان من اختراع الرواة أمثال :

(١) قال أستاذنا علي الجارم بك : ولا يصح في الرأي أن قبيلة واحدة تنطق بكلمة  
الأصبع إلا على صورة واحدة ، غير أن الناس شغلوا عن تحقيق هذه اللهجات وعن نسبة  
كل لهجة إلى قبيلتها . وهذا بحث شريف خليف بنيناة اللغويين . مجلة مجمع اللغة صفحة ٣٢١  
جزء أول .

## إصْبَعُ ، أَصْبِعُ

لأن الانتقال من كسر إلى ضم أو العكس ، مما كانت العرب تنفر منه بصفة عامة . وعلى هذا يمكن إرجاع الباقي من لهجات هذه الكلمة إلى ثلاثة أنواع من القبائل :

قوم يؤثرون البدء بالهمزة مفتوحة ، ولكنهم يختلفون في حركة الباء فبعضهم يؤثر ضمها ، والآخرون يؤثرون كسرها ، فقبيلة كانت تقول « أَصْبِعُ » وأخرى تقول « أَصْبِعِ » ، ثم تطورت لهجة كل منهما إلى « أَصْبِعِ » ، للانسجام بين الحركات في الكلمة .

وهناك قبائل كانت تؤثر البدء بالهمزة مكسورة ، ولهجة هذه القبائل كانت « إِصْبِعِ » ثم تطورت إلى « إِصْبِعِ » للانسجام بين الحركات أيضا . أما القبائل الأخيرة ، فقد آثرت فيما يظهر ، ضم الهمزة فجاءت لهجتها الأصلية « أَصْبِعِ » ، ثم تطورت لانسجام الحركات إلى « أَصْبِعِ » . ولعل هذه اللهجات الأخيرة كانت من اللهجات التي تقف بالتضعيف ، أي أنها تجعل النبر على المقطع [ بُع ] . ونبر المقطع الأخير يؤدي إلى أحد وجهين إما تضعيف العين أو إطالة حركتها ، مما أدى إلى اللهجة الأخيرة وهي « أَصْبِوعِ »<sup>(١)</sup> .

هذه هي آراء سريعة ، ترجح احتمالها فيما يتعلق بكلمة [أصبع] . أما الذي لا يحتمل الشك فهو أن ما صح من هذه اللهجات العشر ، ينتمى إلى لهجات مختلفة بعضها أفصح من بعض .

---

(١) انظر صفحة ١١١

ويمكن أن نلخص العوامل التي دعت إلى اختلاف بنية الكلمات في اللهجات العربية القديمة فيما يلي :

١ - قبائل تميل إلى صوت لين خاص ، وهذا لا يكون إلا في الاختيار بين الكسرة والضمة ، لأن كلا منهما صوت لين ضيق<sup>(١)</sup> .  
وعلى هذا إذا روى لنا أن فعلا من الأفعال الثلاثية الصحيحة جاء من باب «ضرب ونصر» ، رجحنا أن إحدى القبائل كانت تنطق به من باب «ضرب» ، وأخرى كانت تنطق به من باب «نصر» . وأمثال هذه الأفعال كثيرة في المعاجم العربية . وقد أشرنا آنفا إلى أن القبائل البدوية كانت تميل إلى الضم ، في حين أن القبائل المتحضرة كانت تميل إلى الكسر .

٢ - الميل إلى نسج خاص في مقاطع الكلمة . فبعض القبائل تؤثر المقاطع الساكنة على المقاطع المتحركة ، ومن هذه قبيلة «تميم» التي روى عنها أنها كانت تؤثر نساكين وسط الكلمة المتحرك .

وإلى هذه القبيلة يمكن أن ننسب تلك اللهجة التي تجوز نساكين عين الفعل الماضي الثلاثي ، فيقولون في «كتب» «كشَبَ» .

والحقيقة أن معظم اللهجات العربية تنفر من توالي المقاطع المتحركة ، ولكنها تختلف في نسبة هذا النفور . فإذا روى لنا أن كلمة «نخذ» يجوز في نطقها «نخِذ» ، «فخذ» ، أدركنا أن الصيغة الثانية لقبيلة مثل تميم تلك التي تؤثر المقاطع الساكنة .

٣ - سبق أن أوضحنا أن القبائل المتحضرة بوجه عام تميل إلى تحقيق

(١) انظر كتاب الأصوات صفحة ٣٧ .

كل أصوات الكلمة ، وإعطاء كل صوت حقه في النطق ، في حين أن القبائل البدوية تميل إلى تأثر الأصوات بعضها ببعض . ومثل هذا يؤدي إلى اختلاف بنية الكلمة الواحدة بين هذين النوعين من القبائل ، وفيما تقدم من الأمثلة القدر الكافي . كذلك سبق أن شرحنا أن بعض القبائل تؤثر صفات خاصة للأصوات الساكنة ، فبعضها يؤثر الأصوات الشديدة المجهورة ، وآخرون يؤثرون الأصوات الرخوة المهموسة . ومرجع كل هذا البيئة الاجتماعية .

٤ — العامل الأخير الذي يعد أهم العوامل في تغيير بنية الكلمات بين اللهجات المختلفة هو أخطاء الأطفال وما يترتب عليها :

( أ ) فقد يصعب على الطفل تقليد الكبار في نطقهم لكلمة من الكلمات ، ثم يهمل أمر هذا الطفل فينشأ على الخطأ وتصبح الكلمة ذات صورة جديدة في لهجته .

( ب ) كذلك قد يخطئ الطفل في سمع الكلمة فيرتب أصواتها ترتيبا مختلفا ، وتصبح فيما بعد ذات وضع مختلف عن الكلمة الأصلية .

( ج ) قد يقبس الطفل قياسا خاطئا فيشتق وضعا جديدا غير معروف في لهجة آباءه ، ثم يصبح هذا الوضع معترفا به بين أبناء جيله .

إلى غير ذلك من مظاهر أخطاء الأطفال وما يميلون إليه في النطق<sup>(١)</sup> . ولا يظهر مثل هذا إلا في البيئات المنعزلة التي أهمل إصلاح أخطاء الأطفال فيها .

٥ — ويمكن أن يضاف إلى كل ما تقدم عامل آخر كان السبب فياروى

لنا من اختلاف في بنية الكلمات . وهذا العامل هو احتمال خطأ الرواة في النقل ولا سيما بعد تدوين اللغة ، ذلك الخطأ الذي سماه القدماء بالتصحيف .

واختلاف بنية الكلمات قد يكون طفيفا ، لا يصعب معه التعرف على علاقة الكلمات بعضها ببعض . أما الكلمات التي رويت مختلفة البنية ، فبعضها جامد وذلك كأمثال «أصبع، ونخذ» ، وغير ذلك من الأسماء الجامدة التي اختلف نطقها بين القبائل ، لعامل من العوامل السالفة الذكر ، كما أن منها كلمات اختلفت صيغ الاشتقاق فيها ، فقد تشتق قبيلة من القبائل مؤنث الصفات المنتهية بالألف والنون الزائدتين مثل «سكران» ، على وزن سكرى ، ثم يروى لنا أن قبيلة أخرى مثل أسد ، قد شاع فيها اشتقاق مؤنث هذه الصفة ، بناء التأنيث فيقولون في مؤنث سكران : سكرانة . كذلك اتفقت الروايات على أن اسم المفعول من فعل أجوف مثل [باع] هو [مبيع] ، ولكن عرفت قبيلة تميم بأنها لا تفرق بين الفعل الأجوف والصحيح في اشتقاق هذه الصيغة ، فهم يقولون [مبيوع] ، [مديون] بدلا من مبيع ومدين .

ومن السهل تعليل تلك الظاهرة التي شاعت في أسد و تميم ، بالقياس الخاطيء الذي يلعب دورا هاما في خصائص اللهجات ، فقد قاسوا اشتقاق المؤنث من سكران ، على اشتقاقه من معظم الصفات الأخرى ، لأن الكثرة الغالبة في الصفات العربية تؤنث بالتاء . وليس بغريب أن يقاس على اشتقاق الكثرة اشتقاق القلة .

وكما قد يقول الطفل بيننا [أحمره] بدلا من حمراء ، قياسا على معظم الصفات ، قال الطفل الأسدي سكرانة بدلا من سكرى . ثم صار خطأ الأطفال لهجة



معترفا بها بين قبيلة أسد . وكذلك قاس الطفل التميمي صيغة اسم المفعول من الأجوف على صيغته من الصحيح ، لأن الأفعال الصحيحة هي الكثرة الغالبة في اللغة .

وعلى هذا ، فإذا روى لنا اختلاف في بنية الكلمات عند الاشتقاق ، فعلىنا أن نحاول نسبة كل وضع من أوضاع الكلمة الواحدة ، إلى قبيلة خاصة ، أو مجموعة من القبائل . وبذلك تتحدد خصائص كل لهجة وتتميز اللهجات بعضها من بعض . فهناك اشتقاق للمؤنث من المذكر ، وهناك اشتقاق الجمع من المفرد ، وهناك الأسماء الخمسة واختلاف بنيتها بين القبائل ، وهناك اشتقاق المضارع من الماضي ، إلى غير ذلك مما نلاحظ اختلاف اللهجات في وضعه الاشتقاقات .

وربما كان أظهر المواضع التي اختلفت فيها اللهجات ، رغم أن القدماء لم يفتنوا إليه ، أو لم يوقفوا في علاجه ، هو اشتقاق مضارع الفعل الثلاثي من الماضي .

وقد جاءتنا كتب الصرف بعلاج مضطرب لما سموه بأبواب الثلاثي ، خلصوا منه إلى أن تلك الأبواب سماعية ، ولا تخضع لقواعد مطردة ، بل كل ما يمكن عمله بصددتها هو استنباط قواعد غالبية ، شواذها كثيرة جدا . ولعمري كيف تصور القدماء أن لغة منسجمة مطردة كاللغة العربية يمكن أن تتضمن كل هذه الأبواب في اشتقاق المضارع من الماضي الثلاثي ، في حين أنهم يرون أن جميع الصيغ الأخرى تلتزم حالة واحدة مطردة في كل المواضع .

يجب إذن أن ننظر إلى أبواب الثلاثي كما رواها النحاة ، على أنها تنتمي إلى أكثر من لهجة واحدة ، وأن الذي رووه ، إن هو إلا مزيج من لهجات عدة .

لأن أساس الفهم في أية لهجة من اللهجات ، هو الخضوع لقاعدة مطردة نادرة الشذوذ . والذي نستطيع أن نتصوره هو أن كل لهجة من اللهجات ، أو مجموعة منها ، قد التزمت اشتقاق المضارع من الماضي الثلاثي على هيئة خاصة ، لا تشذ عنه إلا في النادر . فأبواب الثلاثي تنتمي إلى عدة لهجات ، كل منها كانت تلتزم بابا أو بابين من بينها . ويؤيد ما نذهب إليه اشتقاق المضارع من الماضي الثلاثي في كل اللغات السامية . ولن نحاول هنا فصل تلك الأبواب بعضها عن بعض ، ونسبة كل منها إلى قبيلة خاصة أو مجموعة من القبائل ، لأن هذا يتطلب جمع كل ما ورد في المعاجم العربية من أفعال ثلاثية ، والبحث فيها ، بعد تبويبها وتنظيمها في مجموعات متناسقة ، ولعل بحوث المستقبل تكفل لنا هذا . على أننا قد جمعنا كل ما ورد في القرآن الكريم من أفعال ثلاثية صحيحة غير معتلة ، ماضيا ومضارعا ، لئلا نرى ما يمكن أن تكون قد خضعت له قراءة « حفص » ، التي لا نشك في أنها تمثل لهجة واحدة منسجمة مطردة في اشتقاق المضارع من الماضي الثلاثي .

وقبل أن نعرض لهذا البحث الخاص ، نريد أن نشير إلى بعض جهود الأقدمين في تحليل اختلاف بنية الكلمات . ولعل أظهر علماء العربية في بحث هذا ، هو « ابن جنى » في كتاب « الخصائص » الجزء الأول ، إذ عقد فصولا أربعة<sup>(١)</sup> سمي الأول : « باب في الفصيح يجتمع في كلامه لغتان فصاعدا » ، والثاني « باب في تركيب اللغات » ، والباب الثالث « في الأصول المتقارنين يستعمل أحدهما مكان صاحبه » . وقد وفق ابن جنى في بعض ما قال في هذه

(١) صفحات ٣٧٥ ، ٣٧٩ ، ٤٦٧ ، ٤٧٨ على الترتيب .

الفصول الأربعة ، ولكن لم يوفق في البعض الآخر . فقد زعم في الفصل الأول أن الفصيح يجمع بين لهجتين في كلامه ، ثم ضرب أمثلة من الشعر لا تكفي حجة لما يدعى ، فلعلها من ضرورات الشعر . وفوق هذا لم يبين لنا ابن جنى ما عني بكلام الفصيح ؟ ألغة تخاطبه بين أبناء قبيلته تلك التي تخضع لصفات خاصة مميزة عن غيرها من القبائل ، أم كان يعني لغة الأدب والشعر ، وهي اللغة النموذجية التي اكتسبت معظم صفاتها من لهجة قريش ؟

ونحن نؤثر أن ننسب لكل لهجة صفات خاصة بها ، وليس من المرجح أن يجتمع في اللهجة الواحدة صفتان مختلفتان في أمر واحد ، وكل ما في الأمر أن المرء من خاصة العرب قد يلتزم شيئاً في لغة تخاطبه بين أبناء عشيرته ، فإذا عمد إلى بيئة الأدب فنظم الشعر أو خطب الناس في المواسم والأسواق ، فإنه قد يلجأ إلى صفة مغايرة للهجة قبيلته ، لأن اللغة النموذجية خصائص قد تخالف خصائص كثير من لهجات الكلام وانغات التخاطب .

وقد روى ابن جنى أمثلة لكلمات مختلفة البنية مثل :

بغداد = بغدادان = مغدان . ظبرزل = طبرزن . أيم = أين .  
 رغوۃ اللبن = رغوۃ = رغوۃ = رغوۃ = رغوۃ = رغوۃ = رغوۃ .  
 الذرۋوح = الذرۋوح = الذرۋيح = الذرۋاح = الذرۋح = الذرۋوح  
 الذرۋرح الخ .

ومن السهل الحكيم على أن مثل هذه الكلمات المختلفة البنية تنتمي إلى لهجات متعددة ، وقد ينتمي بعضها إلى لهجة واحدة ، ولكن في جيلين مختلفين

من أبناء هذه اللهجة . وقد اختتم ابن جنى هذا الفصل بقصة رويت عن الأصمى قال : اختلف رجلان في الصقر فقال أحدهما الصقر بالصاد وقال الآخر بالسين ، ففرضيا بأول وارد عليهما فحكيا له ما هما فيه ، فقال لا أقول كما قلتما ، إنما هو الزقر !!

وليس من المعقول أن هؤلاء الرجال الثلاثة من أبناء لهجة واحدة ، بل إنهم ينتمون إلى لهجات متعددة . وقصة ابن جنى لهذا تقوم حجة عليه لاله . وقد نلتمس العذر لابن جنى لأنه بمن لا يفرقون بين لهجة وأخرى في الاستعمال ، ويرون جميع اللهجات صحيحة يحتج بها ، وقد عقد فصلاً خاصاً بهذا في الخصائص سماه [ باب اختلاف اللهجات وكلها حجة ] .

ثم انتقل ابن جنى في الفصل الثاني إلى ما سماه ( تركيب اللغات ) ، فزعم أن قبيلة كانت تقول قنط يقنط ، وأخرى تقول قنط يقنط ، ثم تداخلت اللغتان فقال من قال ( قنط يقنط ) . . . . .

على أن ابن جنى لم يحدثنا عن كيف تتداخل اللغات ، ولا عن الدوافع التي قد تدعو لمثل هذا التداخل .

ويظهر أن ابن جنى قد مال إلى الناحية الصناعية البيحتة في تفسيره أفعالاً مثل ( قنط ، يقنط ) و ( نيم ، ينعم ) و ( فيضل ، يفضل ) ، وأمثالها مما أعيا القدماء تعليقه في ضوء تلك المقاييس التي وضعوها لأبواب الثلاثي .

ولكن ابن جنى كان موقفاً كل التوفيق حين عرض في هذا الفصل إلى قانون المغايرة ، الذي اعترف به المحدثون وأشاروا إلى أهميته في الاشتقاق . فقد قال ما نصه : [ وقد دلت الدلالة على وجوب مخالفة صيغة الماضي لصيغة

المضارع ] ، ثم قال : [ وإنما دخلت يفعل في باب فعل يفعل ، من حيث كانت كل واحدة من الضمة والكسرة<sup>(١)</sup> مخالفة للفتحة ] .

وليس تداخل اللغات الذي زعمه ابن جنى إلا نوعاً من الصناعة لا تبرره تلك الأمثلة التي رواها . وإنما الواجب أن تجمع كل الأفعال الثلاثية ، ماضيها ومضارعها ، ثم تبوب وتنسق وينظر إليها على أنها تنتمي إلى لهجات متعددة . فإذا قيل إن المراد بتداخل اللغات استعارة بعضها من بعض ، واستعارة اللغات بعضها من بعض أمر معترف به بين المحدثين من علماء اللغات ، قلنا إن اللغات قد تستعير الكلمات لا الصيغ ، وليس هناك من مبرر يمكن معه أن تنتقل القبيلة أو الرجل منها ، من قوله ( نعيم ينعم ) إلى ( نعيم ينعم ) !!

ومما يؤيد ما نذهب إليه أننا نلاحظ في اللهجات الحديثة ، أن الرجلين من أبناء لهجتين مختلفتين ، قد يلتقيان ويصادق أحدهما الآخر زماناً طويلاً ، وكل منهما يلتزم لهجته ، وما نشأ عليه ، فإذا تأثر أحدهما بالآخر ، وأخذ يقلده في لهجته لسبب من الأسباب ، تكلم كل منهما بعد سران طويل ومخالطة مستمرة لهجة واحدة . أما أن تخرج اللهجتان وينشأ منهما لهجة ثالثة ، فليس مما يقره المحدثون من الباحثين في اللغات<sup>(٢)</sup> .

وقد ذكر ابن جنى في هذا الفصل بعض القصص التي تقوم حجة عليه لاله . فمن ذلك ما روى عن أبي حاتم قال : [ قرأ عليّ أعرابي بالحرم طيبي لهم وحسن مآب ، فقلت : طوبي . فقال : طيبي . قلت : طوبي . قال : طيبي ؛ فلما اشتد عليّ قلت : طوطو . فقال : طي طي ] .

(١) انظر كتاب الأصوات صفحة ٣٧ .

(٢) إلا في حالة النزو انظر صفحة ٢٠ .

وقد تعرض ابن جنى فى الفصل الثالث إلى كلمات رويت مختلفة البنية «  
وذلك بأن اختلف ترتيب الأصوات فيها مع اتحاد معناها . وقد فرق ابن جنى  
بين هذه الكلمات ، فجعل بعضها مقولوباً عن نظائرها ، والبعض الآخر كلمات  
مستقلة بعضها عن بعض وكل منها أصل مستقل بذاته ..

ومثل للكلمات المقلوبة عن نظائرها بمثل ( امضجل ) فهى مقلوبة عن  
( اضمجل ) ، ومثل ( اكرهف ) مقلوبة عن ( اكهر ) ، ولكنه قال إن كلا  
من ( جذب وجبذ ) أصل مستقل بذاته وليس أحدهما مقلوب الآخر .

والحقيقة أن مثل هذه الكلمات متى كانت تنتمى للغة واحدة ؛ يجب أن  
ينظر إليها على أن بعضها أصل والبعض الآخر مقلوب عنه ، ولا معنى للفرقة  
بينها . وتكاد هذه الظاهرة تشترك فى معظم لغات العالم التى اشتملت على  
كلمات متحدة المعنى والأصوات ولكن ترتيب الأصوات فيها مختلف . وهذه  
الظاهرة هى فى الأصل من أخطاء السمع بين الكبار ، أو من أخطاء الأطفال  
ثم صار الخطأ صواباً .

وأخيراً تعرض ابن جنى فى الفصل الرابع إلى أن بعض الكلمات قد  
تختلف بنيتها ، وذلك بأن يستعمل أحد الحرفين المتقاربان مكان صاحبه ، ثم  
ضرب أمثلة لهذا مثل :

طبرزل : طبرزن . دهمج : دهنج . خامل : خامن . بنات نخر :  
بنات بنخر .

ومثل هذه الكلمات يمكن أن تنتمى إلى لهجات متعددة ؛ أو إلى لهجة  
واحدة ولكن فى جيلين مختلفين من أبنائها .

على أن ابن جنى لم يحدثنا في هذا الفصل عن معنى تقارب الصوتين ،  
ووجه الشبه بينهما من الناحية الصوتية . وقد ملئت المعاجم العربية بهذا النوع  
من الكلمات ، وسنفرد فصلا مستقلا لما جمعناه منها .

الآن نعرض إلى تلك القواعد التي خضع لها اشتقاق المضارع من الماضي  
الثلاثي الصحيح ، مستنبطين تلك القواعد مما ورد في قراءة حفص من أفعال  
ثلاثية صحيحة لها مضارع وماض ، وكلاهما جاء ذكره في القرآن الكريم .  
وإننا نهدف بهذا إلى الاستدلال على أن ماسماه القدماء بأبواب الثلاثي ، ينتمى  
إلى لهجات متعددة ، وأن اللهجة الواحدة قواعدا الخاصة ، كما سترى من قواعد  
الأسلوب القرآني في قراءة حفص ، وهي ولا شك تمثل لهجة واحدة منسجمة  
مطردة قد أحكت روايتها وتواترت .

ورد في كل القرآن الكريم من الأفعال الثلاثية الصحيحة مستعملة في  
الماضي مرة وفي المضارع مرة أخرى ( نحو ١٣٤ فعلا ) ، وقد تركنا تلك الأفعال  
التي استعملت في الماضي فقط أو المضارع فقط .

وحين استعرضنا تلك الأفعال التي جاءتنا في قراءة حفص في الماضي مرة  
والمضارع مرة أخرى ؛ اتضح لنا أنها لا تشمل على ذلك الباب الذي سماه  
النجاة ( فَعِلَ بِفَعِلٍ ) ؛ بل لقد خلت أيضاً من ذلك الباب الذي سموه ( فَعُلَ  
بِفَعْلٍ ) إلا في فعلين اثنين هما : « كَبُرَ يَكْبُرُ ، وَبَصُرَ يَبْصُرُ » في مثل قوله  
تعالى : [ كبرت كلمة تخرج من أفواههم ] وقوله [ فبصرت به عن جنب وهم  
لا يشعرون ] .

ولا شك أننا نلاحظ في مثل هذا الفعل معنى من معاني المبالغة ، أو شدة

في الحدث ، يرجح عندنا أن مثل هذه الصيغة متفرعة عن [ فَعَلَ ] ، وأنه لا يلجأ إليها إلا حين يراد المبالغة في معنى الحدث الذي تتضمنه الصيغة الأصلية [ فَعَلَ ] . فليست إذن من أبواب الثلاثي ، بل يجب أن ينظر إليها على أنها فرع مستقل ، زاد معناه بتحول الصيغة الأصلية [ فَعَلَ ] إليه .

أما باقي الصيغ الثلاثية التي وردت في القرآن الكريم ، فهي أحد وجهين لا تخرج عنهما وهما [ فَعَلَ ] ، [ فَعِلَ ] .

والصيغة الأولى هي الأكثر شيوعاً في الأسلوب القرآني ، لأن به جوالي ١٠٧

فعلا ماضياً صحيحاً صيغته [ فَعَلَ ] ، وحوالي ٢٤ من صيغة [ فَعِلَ ] .

والقاعدة التي خضعت لها قراءة حفص في اشتقاق المضارع من هذه الأفعال هي المغايرة التي أشرنا إليها آنفاً . فصيغة [ فَعَلَ ] في الماضي يباظرها صيغة [ يَفْعَلُ ] أو [ يَفْعُلُ ] في المضارع ، لأن الفتحة كما قال ابن جني تقابل الضمة أو الكسرة . إذ الفتحة صوت متسع ؛ في حين أن كلا من الضمة والكسرة صوت ضيق<sup>(١)</sup> . أما صيغة [ فَعِلَ ] في الماضي فقد قابلها دائماً [ يَفْعَلُ ] في المضارع ، لم يشذ عن هذا فعل من الأفعال التي جاءت في قراءة حفص .

تلك هي القاعدة التي يمكن استنباطها من أفعال القرآن ، وهي واضحة جلية لا تعقيد فيها ، ومن الطبيعي أن تكون كذلك .

أما تلك الأفعال التي وردت من صيغة [ فَعَلَ ] في الماضي و [ يَفْعَلُ ] في المضارع ، فقد دعا إليها عوامل صوتية في بنية الفعل نفسه ، وذلك أن عين الكلمات أو لامها من أصوات الحلق ، تلك التي تؤثر في كل اللغات السامية ، الفتحة على غيرها من الحركات .

(١) كتاب الأصوات اللغوية صفحة ٣٧ .



وقد فطن الأقدمون من علماء اللغات إلى ميل الأصوات الحلقية إلى الفتحة ، وأقرم على هذا المستشرقون . وقد ظهر هذا الميل بصورة أوضح في اللغة العبرية . أما السرفيه ، فهو أن كل أصوات الحلق بعد صدورها من مخرجها الحلقى ، تحتاج إلى اتساع في مجراها بالفم ، فليس هناك ما يعوق هذا المجرى في زوايا الفم ، ولهذا ناسبها من أصوات اللين أكثرها اتساعا ، وتلك هي الفتحة . ولم يشذ عن هذه القاعدة بين أفعال القرآن الكريم إلا أفعال قليلة هي :

نكح ينكح ، نزع ينزع ، رجع يرجع ، بلغ يبلغ ، قعد يقعد  
زعم يزعم ، نفخ ينفخ ، وأخيراً قنط يقنط .

وكان حق مضارع الأفعال السبعة الأولى أن يكون بالفتح ، وأن يكون مضارع الفعل الأخير بالكسر أو الضم .

وقد أثار الفعل « قنط يقنط » دهشة بين القدماء ، وبدأوا يتأولونه على أنه من تداخل اللغات .

والحقيقة أن الالهجة الواحدة يجب أن تخضع لقاعدة مطردة في الكثرة الغالبة من صيغها ، ولكن قد يتخللها القليل من الصيغ التي تسمى عادة بالشاذة . وفي مثل هذه الحالة يجب أن تدرس هذه الصيغ على انفراد ، وأن يبحث عن مصدرها أو سر شذوذها .

ويغلب أن يعزى هذا الشذوذ إلى التحدار الفعل من لهجة أخرى لها قواعد أخرى تخضع لها .

وليس معنى هذا استعارة الصيغة ، وإنما معناه استعارة الفعل بصيغته . ولهذا نرجح أن الأفعال :

[ نزع ينزع . نكح ينكح . رجع يرجع . قنط يقنط . تفخ  
ينفخ . بلغ يبلغ . قعد يقعد . زعم يزعم . ]

تنتمى إلى لهجة أخرى غير اللهجة التي نزل بها القرآن الكريم .  
وربما كان يعبر عن معاني هذه الأفعال قبل استعارتها في لهجة القرآن  
الكريم ، بمثل الأفعال الآتية على الترتيب :

قلم يقلع . تزوج يتزوج . عاد يعود . . . الخ  
أو أن هذه الأفعال فيما عدا [ قنط يقنط ] قد غابت عليها المغايرة  
لظروف لغوية خاصة باستعمالها .

ولا بأس بعد هذا من أن نورد الأمثلة القرآنية من أفعال بابها « فعل  
يفعل » :

عقل يعقل . ظلم يظلم . عرف يعرف . فرض يفرض . عنم  
يعزم . ضرب يضرب . حرص يحرص . ربط يربط . قبض يقبض  
سبق يسبق . بطش يبطش . كسب يكسب . ملك يملك . حلف  
يحلف . لبس يلبس . كذب يكذب . صبر يصبر . صدق يصدق  
صرف يصرف . نبذ ينبذ . غلب يغلب . كنز يكثر . تفر يفر .  
سرق يسرق . حمل يحمل . قدر يقدر . كشف يكشف . خسف  
يخسف . فصل يفصل . غفر يغفر . ختم يختم . قن يفتن . قذف  
يقذف . عدل يعدل . نقم ينقم . قسم يقسم . هلك يهلك . نكص  
ينكص . نزل ينزل .

وها هي ذى الأفعال التي بابها « فعل يفعل » :

خلف يخلف . كتم يكتم . مكث يمكث . عمر يعمر . حسد  
يحسد . نكث ينكث . سكن يسكن . سلك يسلك . شكر يشكر  
طرد يطرد . نظر ينظر . ترك يترك . سجد يسجد . حشر يحشر .  
مكر يمكر . درس يدرس . عبد يعبد . بسط يبسط . خرج يخرج  
حكم يحكم . حضر يحضر . ذكر يذكر . فسق يفسق . نقض ينقض  
نصر ينصر . دخل يدخل . خلق يخلق . رزق يرزق . قتل يقتل .  
كتب يكتب . كفر يكفر .

أما الأفعال التي جاء مضارعها مفتوح العين بسبب حرف من حروف  
الخلق فهي :

ذهب يذهب . نفع ينفع . لعن يلعن . فعل يفعل . بعث يبعث .  
قطع يقطع . طبع يطبع . فتح يفتح . جحد يجحد . نصح ينصح .  
سحر يسحر . خشم يخشم . جمع يجمع . رفع يرفع . ذبح يذبح . جعل  
يجعل . صنع يصنع . ظهر يظهر . جهر يهجر . زهق يزهق . شرح يشرح  
منع يمنع .

وها هي ذى الأفعال التي لا شدوذ في أمثلتها القرآنية والتي جاءت من  
باب « فعل يفعل » :

نفذ ينفذ . عجل يعجل . شرب يشرب . رحم يرحم . سمع يسمع .  
شهد يشهد . علم يعلم . حسب يحسب . عمل يعمل . فشل يفشل . بخل  
يبخل . عهد يعهد . ركب يركب . ثقف يثقف . حبط يحبط . خطف  
يخطف . سخط يسخط . سخر يسخر . لبث يلبث . فحك يفحك .

عجب يعجب . حفظ يحفظ . كره يكره . طعم يطعم . فرح يفرح .

من كل هذا نستطيع أن نرجح أن اللهجات العربية القديمة قد خضعت لقواعد مختلفة فيما يتعلق باشتقاق المضارع من الماضي الثلاثي . ولعل من القبائل من كانوا يوثرون صيغة « فعل يفعل » ، أو لعل منها من كانوا يقولون « فعل يفعل » إلى غير ذلك من الاحتمالات التي ستكشف عنها بحوث المستقبل . وكل الذي نستطيع أن نؤكد هنا ، هو أن كل لهجة كانت تخضع لقواعد خاصة بها ، لا تحيد عنها إلا فيما تستعيره من لهجات أخرى . وقد لاحظنا في كل ما تقدم من تغيير في بنية الكلمات أن التغيير طفيف ، لم يمنعنا من التعرف على أكثرها شيوعاً وأصحها استعمالاً .

- ٢ -

## المترادفات

لعل أهم ما ترتب على تغيير بنية الكلمات بين لهجات القبائل المختلفة ، أن جاءتنا المعاجم اللغوية بمجموعة كبيرة من الكلمات سميت بالمترادفات ، لأنها قد أبديت معنى واختلفت في الصورة ، وإن كان اختلاف صورتها ظاهرياً لا حقيقياً . إذ من السهل معرفة الأصل الصورة ، وما تفرع عنه لعامل من عوامل تطور الأصوات (١) .

ومن المترادفات العربية ما اختلفت ألفاظها اختلافاً واضحاً ، فلا تمت تلك

(١) انظر كتاب الأصوات اللغوية صفحة ١٦٠

الألفاظ بعضها إلى بعض بأية صلة مثل « القمح والحنطة » . وهذا النوع الأخير هو الخلق بتسميته بالترادف . على أن القدماء في بحوثهم للكلمات المترادفة ، قد خلطوا بين النوعين ولم يميزوا بينهما .

وقد اختلف القدماء من علماء اللغة حين عرضوا للبحث فيما يسمى بالترادف من الكلمات ، فأنكروا بعضهم وأخذوا يتأولون ماورد منه تأولا لا يخلو من التعسف والتكلف .

أما الذين حاولوا اثباته ، وهم الكثرة بين علماء اللغة العربية ، فقد أسرفوا في التمثيل له ، وجاءوا بكلمات عدوها مترادفة دون علاقة ظاهرة بين معانيها<sup>(١)</sup> .

ولامعنى لانكار الترادف مع تلك الأمثلة الكثيرة التي جاءت تنابها الأساليب العربية ، وتلك الروايات التي ثبتت صحتها . فقد روى أن أبا هريرة لقي النبي صلعم وقد وقعت من يده السكين ، فقال له ناولني السكين ، فالتفت أبو هريرة يمنة ويسرة ولم يفهم ما المراد بهذا اللفظ . فكرر له القول ثانية وثالثة وهو يفعل ذلك ، ثم قال « ألمدية تريد ؟ » وأشار إليها ، فقيل له نعم . فقال أو تسمي عندكم سكيينا ؟

ثم قال والله لم أكن سمعتها إلا يومئذ .

ولعل هذه الحادثة كانت قبل نزول القرآن الكريم بلفظ السكين في

سورة يوسف .

(١) حاول استاذنا على الجارم بك التوفيق بين الرأيين في مقال له مستفيض نشر في مجلة المجمع اللغوي الملكي ، فكان موقفا كل التوفيق وقد اقتبسنا هنا طرقا مما جاء في هذا المقال .  
الجزء الأول صفحة ٣٠٣ .

ومن الروايات التي أجمعت عليها كتب الأدب ، ماروى أن رجلا من بني كلاب أو من سائر بني عامر بن صعصعة ، خرج إلى ذى جدن من ملوك اليمن فاطلع إلى سطح والملك عليه . فلما رآه الملك اختبره فقال له « ثب » يريد أقعد ، فقال الرجل « ليعلم الملك أنى سامع مطيع » ثم وثب من السطح . فقال الملك ما شأنه ؟ فقالوا له : أبيت اللعن ، إن الوثب في كلام نزار الطمر « أى الوثوب إلى أسفل » ، فقال الملك : ليست عربيتنا كعربيتهم ، من دخل ظفار حمر « أى من دخل مدينة ظفار اليمنية فليتكلم الحميرية » .

وقد أدى هذا إلى استعمال « وثب » مرادفة « لقعد » في لهجات الشمال ، وروت للمعجم العربية من معانى الوثوب القعود .

وسنوضح الأصل الاشتقاق لهذه الكلمة عند الحديث عن الاشتراك اللفظي . بل كيف ينكر المترادف مع وجود تلك الكلمات العربية التي لا نلاحظ في معانيها فرقا مهما أجهدنا أنفسنا في التأول والتحايل ، مثل : القمح والخنطة والبر ؟ وقد شاعت بعض كلمات خاصة في لهجة من اللهجات العربية ، آثرتها بالاستعمال ، أو قل لم تكن تعرف غيرها ، في حين أن بعض القبائل الأخرى كانت تعبر عن نفس المعانى بكلمات متباينة الصورة ، ولا تعرف غيرها في حديثها وشئون حياتها .

فلما جاء عصر تدوين اللغة ، وجمعت كل تلك الكلمات ، دون محاولة نسبتها إلى بيئاتها قبل الإسلام ، رأينا ذلك المزيج الغريب من كلمات مترادفة كثيرة فيما روى من اللغة العربية ، مما لا نظير له في أية لغة من لغات العالم . وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم في الكتابة للقبائل يراعى بقدر الإمكان

ما اشتهر عندهم من كلمات . فمن ذلك كتابه لوائل بن حجر أحد ملوك حمير  
[ إلى الأقبال العباهلة والأرواع المشاييب<sup>(١)</sup> ] ... الخ .

وكتبه صلى الله عليه وسلم لقبائل اليمن بصفة خاصة ، مشهورة روتها كتب  
الأدب وشرحها شرحاً وافياً .

ويظهر أن الذين اختلفوا في الترادف فأنكروه بعضهم ، وأثبتته البعض  
الآخر ، قد نظروا إليه من زاويتين مختلفتين . فأولئك الذين أنكروه ،  
لم ينظروا إلى معاني الكلمات في عصر خاص ، بل كانت نظرتهم إليها نظرة  
تاريخية ، فيها يبحثون عما كانت عليه المعاني ، وما صارت إليه ، ويتبعون  
أدوارها في أكثر من عصر واحد . ولذلك عدوا كثيراً من أسماء ( السيف )  
صفات لا أسماء ، في حين أن الذين عدوها مترادفات ، نظروا إليها على أنها  
صفات منسية ، قد أصبحت أسماء بعد أن تنوعت الفروق بينها ، وأصبحت  
كلها تستعمل للتعبير عن السيف ، دون ملاحظة وصف خاص به .

وعلى هذا ، فما روى من جدل لغوي بين ابن خالويه وأبي علي في هذا  
الشان ، إنما يمثل وجهتي نظر متباينتين في الظاهر متحدتين في الحقيقة . فقد  
روى عن أبي علي الفارسي قال [ كنت بمجلس سيف الدولة بحلب ، وبالخضرة  
جماعة من أهل اللغة ، وفيهم ابن خالويه ، فقال ابن خالويه : أحفظ للسيف  
خمين أسماء ، فتبسم أبو علي وقال : ما أحفظ له إلا اسماً واحداً وهو السيف ،  
قال ابن خالويه : فأين الميهد والصارم وكذا وكذا ؟ قال أبو علي : هذه صفات ] .

(١) « القيل » في لهجة اليمن كالوزير في اليهود الإسلامية ، « العباهلة » الذين استقر  
ملكهم ، « والأرواع » السادات ، « المشاييب » الأذكاء .

فما لا شك فيه أن أبا علي وأمثاله نظروا للكلمات نظرة تاريخية ، فأوها  
في عصورها الأولى تعبر عن صفات متميزة ، وهذا الاتجاه هو الذي يعبر عنه  
المحدثون من علماء اللغات Diachronic .

ولكن موضع الزلل عند هؤلاء العلماء ؛ أنهم نظروا إلى تاريخ الكلمات  
وتطورها نظرة سطحية خالية من عمق ، كما لو أن تاريخ الكلمات ونشأتها أمر  
يعد بالسنوات ، ولم يدرك بخلافهم أنه آلاف من السنين ، ومن العبث البحث  
في أصل وضع الكلمات ، حين نريد البحث في المترادفات .

أما أمثال ابن خالويه ؛ فإنهم نظروا إلى ما صارت إليه الكلمات في  
عهد خاص ، حين تنوسيت الوصفية من تلك الكلمات ، فأصبحت أسماء  
لا يلحظ الكاتب أو الشاعر فروقاً بينها في الاستعمال ، وتلك النظرة هي التي  
يعبر عنها المحدثون بقولهم « Synchronic » ؛ أي النظر إلى اللغة كما هي في عصر  
من العصور ، دون اعتبار لما كانت عليه قبلاً ، فهي نظرة وصفية تحليلية ، وهي  
النظرة التي نؤثرها هنا ونبحث المترادفات في ضوئها .

ونحن حين نستعرض الأساليب العربية التي صحت روايتها لا نشك لحظة  
في الترادف بين بعض الكلمات العربية ، دون مغالاة في هذا ، إذ يجب  
التفرقة بين الأسماء والصفات التي ظلت على وصفيتها ، كما يجب إبعاد الكلمات  
التي اشتركت في جزء من معناها ، واختلفت في الجزء الآخر أمثال :

[ جلس ، قعد ] ؛ لأن في « قعد » معنى ليس في « جلس » . ألا ترى  
أنا نقول . قام ثم قعد ، وأخذ المقيم القعد ، ثم نقول كان مضطجماً فجلس ،  
فيكون القعود عن قيام ، والجلوس عن حالة هي دون الجلوس .



فإذا أبعدت عن المترادفات تلك الكلمات التي تحايل عليها من أثبتوا الترادف ،  
 وخلقوا بينها مماثلة في المعنى ، كما أنه إذا أبعدت تلك الكلمات التي لم ترد في نص لغوي  
 صحيح النسبة ، وجدنا أنفسنا أمام عدد معقول من المترادفات في اللغة العربية .  
 وليس هنا مجال البحث بإسهاب عن أسباب الترادف في اللغات بصفة  
 عامة ، وإنما تقتصر على الإشارة إلى أهم الأسباب التي ولدت الترادف في كلمات  
 اللغة العربية ؛ فترجعها إلى العوامل الآتية :

أ - إشار بعض القبائل لكلمات خاصة تشيع بينها وتكاد تكون  
 مجهولة في القبائل الأخرى ، كما لاحظنا في الروايات التي أشرنا إليها آنفاً .  
 ب - استعارة كلمات من لهجة من اللهجات ، أو لغة من اللغات ، بسبب  
 الغزو أو الهجرات ، أو الاحتكاك بين القبائل ، فيصبح للمعنى الواحد أكثر  
 من كلمة واحدة ، وفي هذه الحالة لا تتساوى نسبة الكلمتين في الشيع ، بل  
 ينظر إلى الكلمة المستعارة نظرة أرقى وأسمى في الاستعمال ، وذلك لأنها  
 انحدرت من قوم أرقى في الناحية الاجتماعية أو السياسية ، أو لأنها أخف على  
 السمع والطف في الجرس .

وقد أجمع الرواة على أن قریشاً كانت تتخير من كلمات القبائل في مواسم  
 الحج والأسواق ، ماخف على اللسان وحسن في السمع ، حتى لطفت  
 لهجتهم ، وجاد أسلوبهم .

ج - هناك صفات تفقد عنصر الوصفية مع مرور الزمن وتصبح أسماء  
 لا يلحظ الكاتب أو الشاعر ما كانت عليه ، فيؤدي هذا إلى الترادف . ونحن  
 نلاحظ هذا بصفة خاصة ، في تلك الكلمات العربية التي تعبر عن أشياء ذات

. اتصال وثيق بالبيئة البدوية ، والحياة الاجتماعية فيها .

وفيما روى للجمل والسيف والعسل من كلمات عربية كثيرة ، خير شاهد على ما تقول .

ء — من الكلمات ما تشترك معانيها في بعض الأجزاء ، وتختلف في البعض الآخر ، ويمكن تشبيهها بدوائر متحدة المركز ، ومختلفة في جزء من سطوحها . فإذا مر عليها زمن طويل ، ودعت عوامل تغير المعاني أن تنطبق الدوائر بعضها على بعض ، أصبحت تلك الكلمات مترادفة . لأن المعاني لا تبقى على حالة واحدة ، فقد يصبح الخاص عاماً أو يصبح العام خاصاً .

فإذا قارنا بين الكلمة [ هلك ] في العربية ، وجدنا معناها في العبرية لكل نوع من الذهب ، في حين أن معناها في العربية قد تحدد فأصبح مقصوراً على نوع واحد من الذهب وهو [ الهلاك ] .

ه — المجازات المنسية قد تولد نوعاً من الترادف في الكلمات ، فقد تستعمل بعض الكلمات استعمالاً مجازياً ، يطول العهد عليه ، فيصبح حقيقة . وهنا نرى كلمات مستعملة بمعانيها الأصلية الحقيقية ، جنباً إلى جنب مع تلك التي أخذت معانيها عن طريق المجاز .

والمعاني الأصلية الحقيقية ، هي المعاني الحسية ، التي يتفرع عنها عادة عن طريق المجاز ، ما يشيع من معنويات . فالرحمة مثلاً قد اشتقت من [ الرحيم ] موضع الولد ، والمكان الذي يلد الأبناء والأخوات ، فيتنشأ بينهم صلة من الحب والعطف . فعمل الرحمة في الأصل هي عملية النسل من الأرحام ، ثم استعملت في قديم الزمان عن طريق المجاز في الصلة بين الذين يولدون من رحم واحد .

وقد تقادمت العهود على هذا المعنى المجازى ، حتى أصبح حقيقة ، وبهذا نشأ الترادف بينها وبين كلمة مثل ( الرأفة ) .

لا نريد بعد هذا أن ننساق مع بعض العلماء حين عددوا فوائد المترادفات للكاتب والشاعر والخطيب ، لأن مثل هذا البحث قد يخرجنا عما نهدف إليه في هذا الكتاب ، وإنما نريد الإشارة إلى ذلك النوع من الكلمات التي ظنها بعض العلماء من المترادفات ، في حين أن اختلاف الصورة بينها ، ليس إلا ظاهرياً ، وأنها كلمات ذات أصل واحد ، وتطورت صورتها لعامل من عوامل تطور الأصوات .

وليست هذه الكلمات بمترادفات حسب المعنى الدقيق للترادف . وقد مثل القدماء لقليل من هذه الكلمات ، دون أن يشرحوا لنا العلاقة الصوتية بينها . لهذا قمنا بجمع عشرات من تلك الكلمات ، أوردناها هنا مبوبة مع شرح العلاقة الصوتية بينها ، وكيف تطورت إلى صور متعددة .

## الشدّة والرخاوة

### ١ - الهمزة والهاء :

- هلبت السماء القوم مطرتهم مطراً متتابعاً : ألبت السماء دام مطرها .
- أته بالحجة : الهت نرد الكلام ، والهتات الكثير الكلام .
- الأر ، رمى السلاح : هرّ سلحه استطلق .

الأمر العطف : المصير عطف متى ، وطب .

أز : هز . الألس اختلاط العقل : مهتلس العقل بسلوبه . الأبخس الجمع :  
المهيش . ياش : يهش .

أضه كسره : هضه وطئه فشدخه . أضن كسر : هضن . أراق : هراق .  
أزم القوم استأصلهم : هزم . بدهه بأمر : بدأه به . درأ الرجل خرج فجأة :  
دره هجم وطلع .

## ٢ - الهمزة والعين :

بدأ الله الخلق خلقهم : بدعهم . الخباء : الخباج . دنع الصبي خضع وذل  
ولوؤم : الدنى . شناه كرهه : شنيع كرهه . الأزر التقوية : التعزير . الأشر  
الشد والعصب : العسر . ألك الفرس اللجام : علكه . الأئم زيتون البر : العثم .

## ٣ - الباء والميم :

كبح الدابة : كبجها . الطبخش الناس : الطمش . رأيته عن كشب : رأيته  
عن كشم . ثلته : ثلته .

## ٤ - الباء والقاء :

ناقة زفون : زبون . إفانه : إبانه . الفسكل : البسكل .

## ٥ - الضاء والظاء :

عظته الحرب : عضته . ظجّ صاح في الحرب صياح المستغيث وبالضاد  
بقي غير الحرب . فاظ مات : فاضت روحه .

## ٦ - الال مع الال أو الزاي :

ذش الرجل سار : دس . الدغدغة : الزغزغة . فشرذ بهم : فشرذ بهم  
(قراءة) .

## ٧ - الجيم والياء :

شجرات : شيرات .

## ٨ - الاء مع السين :

أخذ : استخذ .

## الجهر والهمس

## ١ - الال واللاء :

اللد : اللد . هرد اللحم أنعم إنضاجه أو طبخه حتى يهراً : الهرت الطبخ  
البالغ . فدغه شرخه : فتنه . قدر الفحل : قدر .

## ٢ - الال واللاء :

بث الخبز نشره وفرقه : البث من التمر المنتثر . الجث القطع : الجذ .

المثلث الوعد بلا نية الوفاء : اللذ الكذب . تلعم : تلعدم . جذوة : جثوة -  
جذا : جثا .

### ٣ - الجيم والسين :

جزر قطع : الشزر القطع . جظه طرده : شظ القوم طردهم ..  
الجفن : شفن نظر بمؤخر عينه .

### ٤ - العين والحاء :

الفلح الشق وفتح الأرض شقها : فلهه شقه . لطحه ضربه ببطن  
كفه أو ضرباً ليناً على الظهر : اللطع أن تضرب مؤخر الإنسان برجلك ..  
أمتع النهار ارتفع : متع النهار ارتفع قبل الزوال . حظب سمن : عذب ..  
الحوس الجوس : العوس الطوفان بالليل . حنشه عن الشيء عطفه : عنش -  
الحبكة : العبكة .

### ٥ - العين والحاء :

زاغ في المنطق جار : زاخ . الخود الناعمة الرقيقة : الغيد ..  
خرز الجلد بالخرز ثقبه : غرز الإبرة . الأخن : الأغن . الحنة : الغنة ..

### ٦ - الزاي والسين :

الحرز الموضع الحصين : حرس الشيء . غرض : غرز . سينخ  
الدهن : زبخ . زرد الدرع : سردها . الزلغ شقاق في ظاهر القدم

جوابته : السلع الشق في القدم . زفت الريح السحاب طرده واستخفته :  
سفت الريح التراب . الزفت : السفت .

## الاطباق والاستفال

### ١ - الصاد والسين :

الدخيس اللحم المكتنز : دخبت الجارية امتلأت شحما . الرعس  
الارتعاش والانتفاض : الرعص النفص والهز وارتعص انتفض . اللقص :  
القص . ما ينبس ما يتكلم : ما ينبص . السقب ولد الناقة : الصقب .  
صفتح الجبل عرضة المضطجع : صفتح الجبل مضطجعه . الصراط : الصراط .  
الصعوط : السعوط . السنط : الصنط . سلطه : صلطه . سفع : صفع .  
صلفت الشاة : سلفت . السخب : الصخب . البساق : البصاق .

### ٢ - الطاء والذال :

ذاته خنته : ظأته .

### ٣ - الطاء والتاء أو الدال <sup>(١)</sup> :

غته في الماء : غطه . هتت السماء : هطلت . القلت : القلط .  
دلح لسانه أخرجه : طلع . دحه دفعه شديداً : الطحوم الدفع .

(١) الطاء كما تنطق الآن هي الصوت المطبق للتاء ولكن يظهر أنه كان ينطق بها  
قديمًا كقطع الدل . أنظر كتاب الأصوات الغوية صفحة ٥٣ .

## نسبة الوضوح في السمع

هناك أصوات أتحدت في الصفة ولكنها اختلفت في نسبة وضوحها في السمع ، وهذه الأصوات يحل بعضها محل بعض ، كالراء مع اللام ، فان الأولى أوضح في السمع من الثانية ، مع أن كلا منهما من الأصوات المتوسطة الشبيهة بأصوات اللين . وكذلك السين مع الفاء ، والحاء مع الهاء ، والثاء مع القاء .

### ١ - الراء واللام :

الرَّخْفُ الزيد : اللِّخْفُ . رمقه لحظه : اللمق النظر . رَبَّكَ خلطه : اللَّبْكُ الخلط . الرمز واللمز الإشارة . رتب وتوبا ثبت : اللَّتْبُ اللزوم والثبات . الخيزرى مشية خاصة : الخيزلى . رَبْدًا أقام : لبد . الركود السكون : لكد عليه الوسخ لزمه . جوفه : جلفه . رعل : لعل . تبرص : تبلص .

### ٢ - الثاء والفاء :

جدث : جدف . الجثل النمل : الجفل .  
ثار : فار . اشجر الماء : اتعجر .  
الثغر القم : فغر القم بابه . ثلع رأسه شدخه : الفلع الشق . مغفور : مغشور .  
ثجل عظم بطنه واسترخى : ثجل استرخى وغلظ .

### ٣ - السين والفاء :

رجست السماء رعدت شديداً : رجف الرعد ترددت هدهدته في



السحاب . وارتجس البناء : رجف . الشوس النظر بمؤخر العين تكبرا  
 أو تعيظا : الشنّف النظر إلى الشيء كالمعترض عليه أو كالكاره له .  
 الوجس الفزع : وجف يجف اضطرب خوفاً . سطح : فطح . السلع  
 الشق في القدم : الفلع . السحم : الفحم .

#### ٤ — الحاء والراء :

التحريش بين الناس الإفساد : التهريش .  
 ويمكن أن نعزو جميع ما تقدم من أمثلة ، إلى الاختلاف بين البيئة  
 البدوية والبيئة الحضرية ، كما أشرنا في موضعه . وهناك أمثلة أخرى يرجح  
 أنها نتيجة أخطاء الأطفال ، فقد كانت تستعمل في البيئة الواحدة ولكن في  
 أجيال مختلفة منها .  
 وهذه الكلمات التي سنوردها تختلف إما في مجرى الصوت من الفم  
 أو الأنف مع الاتحاد في الصفة ، أو تختلف في مخرج الصوت ، وذلك بانتقاله  
 من موضعه إلى موضع آخر أيسر في النطق ولا يحتاج إلى جهد عضلي ،  
 أو قد تختلف الكلمات في ترتيب أصواتها .

### اختلاف المجرى

الشلّ غلظ الأصابع : الشن . غمّل الجلد : غمفه . امتقع لونه :  
 التقع . لعلّ : لعنّ .  
 أصيلا : أصيلا .

## اختلاف المخرج

### ١ - الطاف والتاء :

بمكة قطعه : بته . عرت أنه ذلكه : عرك ذلكه وحكه .  
الأعفت الأحمق : عفت أحمق جداً .

تخ زجر للدجاج : كخ كخ زجر للصبي .

٢ - القاف التي كان ينطق بها في الأصل كالغين<sup>(١)</sup> ، حلت الغين  
محلها في بعض الكلمات ، ثم همست كما لنطق بها الآن فحلت الكاف محلها  
في بعض الكلمات :

غم له من المال دفع له دفعة جيدة : قتم .  
الغمس الغوص : القمس . قرته الأمر : كرهه : الدك : الدق .  
الدفكة : الدعقة .

حزقه ضغطه وشده : حزكه عصبه وضغطه . الغسق : الغسك . القح :  
الكح . القهر : الكهر . القحط : الكحط .

### ٣ - السين والسين :

الرغس : الرغش . الغبس الظلمة : الغبش . معسه ذلكه شديداً :  
المعش ذلك الرقيق . النس السوق والزجر : النش السوق الرقيق . نهشه

(١) أنظر كتاب الأصوات الفوية صفحة ٧٢ .

أخذه بأضراسه وبالسِّن أخذَه بأطراف أسنانه . شتت يده تشقت  
وتشتت ما حول الأظافر : شتت أصابعه تشتت ما حول أظافرها .

## اختلاف ترتيب الأصوات

الليجز : الزجاج . جذب : جذب . ربح : ربح . صاعقة :  
صاعقة . عميق : عميق . لبكت الشيء : بلكته . سحاب مكهر  
ومكهر . اضمحل : امضحل .

- ٣ -

## المشترك اللفظي

لا بد في الحديث عن اللهجات العربية من التعرض لنوع من الكلمات ،  
رويت لنا متحدة الصورة مختلفة المعنى . وقد تعود القدماء أن يسموا هذا النوع  
من الكلمات بالمشترك اللفظي ، لأن الكلمة الواحدة مع محافظتها على لفظها  
وأصواتها ، تبرز عن أكثر من معنى واحد .

وقد عرض القدماء في بحوثهم لهذه الكلمات ، فأنكروا بعضهم ، وتناول  
ما ورد منها بأن جعل أحد المعنيين حقيقياً والآخر مجازياً ، وعلى رأس هذا  
الفريق ابن درستويه . ولكن الكثرة من علماء اللغة ، قد ذهبوا إلى ورود  
المشترك اللفظي ، وضربوا له أمثلة كثيرة ، وعلى رأس هؤلاء الأصمعي ،

والخليل ، وسيبويه ، وأبو عبيدة ، وغيرهم . بل لقد أفرد بعض هؤلاء مؤلفات خاصة سردوا فيها أمثلة المشترك اللفظي .

ويظهر أن كلا الفريقين قد أسرف فيما ذهب إليه ، وبعد عن جادة الصواب في بحثه ، إذ لا معنى لانكار المشترك اللفظي مع ما روى لنا في الأساليب العربية الصحيحة من أمثلة كثيرة ، لا يتطرق إليها الشك . كذلك لا معنى إلى المغالاة في رواية أمثلة له مع ما في هذا من التعسف والتكلف . ولكن كما اختلف القدماء في ورود الترادف اختلفوا أيضاً في ورود المشترك اللفظي ، وذلك لأن كل فريق قد نظر إلى الكلمات ومعانيها من زاوية خاصة . فالذين تناولوا أمثلة المشترك اللفظي على أنها كلها من الحقيقة والمجاز ، قد نظروا إليها نظرة تاريخية ، وتتبعوها في عصورها المختلفة ، وتلك هي الطريقة التي سميناها آنفاً Diachronic . أما الآخرون فنظرتهم وصفية واقعية ، إذ بحثوا في الكلمات ومعانيها في عصر خاص ، وتلك هي النظرة التي سميناها Synchronic . وليس الأمر من البساطة بالقدر الذي تصوره القدماء من علماء اللغة ، إذ قد وقع المشترك اللفظي في كل لغة ، وقد دعت عوامل متعددة لوقوعه . فكما تتطور أصوات الكلمات وتتغير ، قد تتطور معانيها وتتغير ، مع احتفاظها بأصواتها . وتطور المعاني وتغيرها مع الاحتفاظ بالأصوات ، هو الذي ينتج لنا كلمات اشتركت في الصورة واختلفت في المعنى .

ولعل أهم عامل في تغير المعنى هو الاستعمال المجازي ، وليس من الضروري أن يكون الاستعمال المجازي مقصوداً متعمداً ، كما نلاحظه في بعض الأساليب الشعرية والكتابية ، بل قد يقع من عدة أفراد في البيئة اللغوية في وقت

واحد ، ودون مواضعة أو اتفاق بينهم . فالناس في لغة تخاطبهم قد يلجأون إلى مجازات لتوضيح معانيهم وإبرازها في صورة جلية ، دون أن يعدوا إلى هذا عمداً ، أو يرغبوا في إظهار براعة في الكلام . فكما تعودوا أن يقولوا رأس الإنسان ، قد يقولون أيضاً رأس الجبل ورأس النخلة ثم أخيراً رأس الحكمة ولا يعنون بكلمة ( رأس ) في كل استعمال من هذه الاستعمالات ؛ سوى الجزء الأعلى البارز من كل شيء ، وإن اختلفت هذه الأجزاء في تقاضيلها . ونحن في فهمنا لمعاني الأشياء لا نتطلب الدقائق والتفاصيل فيها ، بل نكتفي عادة بفكرة سريعة ذات ارتباط بتجار بنا السالفة . فحين نسمع للمرة الأولى استعمالاً مثل [ رأس الجبل ] لا نحاول تحليله إلى دقائقه ، وإنما نربطه وربطاً سريعاً بتجارينا السابقة التي منها فهمنا أن رأس الإنسان هو أعلى جزء فيه وأبرزه ، فنقبل هذا الاستعمال الجديد متى كان يمت بعلاقة ما لاستعمال قديم ، وهكذا تنتقل معاني الكلمات من محيط إلى آخر . وقد يكون الاستعمال الجديد من عمل فرد ممتاز في البيئة اللغوية كشاعر أو كاتب ، كما قد يكون من عمل مجموعة من الناس دون مواضعة أو اتفاق بينهم . وانتقال المعاني من محيط إلى محيط آخر هو الذي اصطلح على تسميته بالمجازات . على أن المجازات تخضع عادة لذوق العام . فإذا أسرف الشاعر في مجازاته ، أو غالى فيها أو بعد بها عن بيئته لم يقبلها الذوق العام ، ولا تلبث أن تموت . وحين تمر الأيام على تلك المجازات ، ويكثر استعمالها ؛ لا تلبث أن تنسى الناحية المجازية فيها ، وتصبح معانيها حقيقية . والبحث عن تلك المجازات المنسية أمر ليس باليسير ، لأنه يتطلب التوغل في العصور التاريخية للبحث عن نصوص قديمة فيها استعملت .

الكلمات بشكل مجازي واضح ؛ أو يتطلب البحث في تاريخ الحياة الاجتماعية لأمة من الأمم لنستطيع الوصول إلى أن المعنى الذي يبدو لنا الآن حقيقياً ، كان في بدء استعماله مجازياً ، لما كانت عليه تلك الأمة من تقاليد كذا وكذا . وكل تغير في الحياة الاجتماعية يستتبع تغيراً في معاني بعض الكلمات التي قد تحتفظ بصورتها ، وينشأ من هذا ما نسميه بالمشارك اللفظي . فمثلاً الكلمة التي تعبر في كل اللغات الأوربية عن [الكهرباء] قد اشتقت من كلمة أغريقية قديمة كانت تعني ذلك الحجر المسمى بالكهرمان ؛ وذلك لأن الكهرمان كان معروفاً منذ القدم بأنه يجذب بعض المواد الصغيرة بعد حكه . ولسنا الآن نشك في أن الكلمتين : كهرباء ، كهرمان من أصل إغريقي واحد ، رغم أنهما عربتا بصورتين مختلفتين بعض الاختلاف يسهل ارجاعهما إلى ذلك الأصل بسهولة . المعاني إذن لا تبقى على حال واحدة بل هي دائمة التغير ، وإن كان تغيرها بطيئاً ، يمر في أجيال قبل أن نشعر به أو نتعرف عليه . وكما يصيب التغير بعض الأصوات دون البعض الآخر ، كذلك نرى تغير المعاني مقصوراً على بعضها دون البعض الآخر . وذلك لتلك الظروف اللغوية الخاصة التي قد تطرأ على بعض الكلمات فقط . وكما قد تحافظ بعض الكلمات على أصواتها ولفظها ، كذلك قد تحافظ بعض الكلمات على معانيها .

أما أهم العوامل التي تسبب تغير المعاني فيمكن أن نلخصها فيما يلي :

١ - الانتقال من الحقيقة إلى المجاز : وهذا هو أهم العوامل ، وإليه يمكن أن يعزى معظم اختلافات المعاني وتغيرها .

والمجازيات قد تكون من عمل الأفراد الموهوبين في شعر أو نثر ، كما قد

تكون من عمل جماعة من الناس في البيئه اللغوية . ومجازات الشعراء والكتاب حين يعمدون إليها في أساليبهم للمرة الأولى ، تصدر منهم عمداً ، ولغاية خاصة ، أما المجازات الأخرى فإنما يدعو إليها تغير في الحياة الاجتماعية أو تقدم في الحياة العقلية : وهنا ينتقل المعنى الحسى إلى مجال المعنويات .

ب — سوء فهم المعنى : قد يسيء الطفل فهم معنى الكلمة في البيئه المنعزلة التي لا استقرار فيها ، ثم ينشأ هذا الطفل دون أن يصلح له ما فهم ، فراه يستعمل الكلمات في معنى جديد ، إن لم يكن مخالفاً للمعنى الأول كل المخالفة ؛ فلا أقل من أن نرى بين المعنيين بعض الاختلاف . فتغير المعانى قد يكون من أخطاء الأطفال .

وليس من السهل التمييز بين الكلمات التي اختلفت معانيها بسبب استعمال مجازي ، وبين تلك التي تعددت معانيها بسبب أخطاء الأطفال ، على أنه يمكن بوجه عام أن تنسب تغير المعانى في كلمة من الكلمات إلى عبث الأطفال حين لا نلاحظ علاقة واضحة بين المعنى القديم والمعنى الجديد . . . وحكنا في مثل هذه الحالة مرجح لا مؤكداً ؛ لأن بعض المجازات المنسية قد نشأت في ظروف لغوية خاصة ، ومضى عليها زمن طويل فأصبح من الصعب الكشف عنها .

ج — قد تستعير اللغة كلمات تماثل صورتها كلمات أخرى فيها ، وإن اختلف معناها . وهنا قد ترى كلمتين متحدتين في الصورة ، مختلفتين في المعنى . ولكن كلا منهما ينتمى في الأصل إلى لغة مستقلة . ومثل هذا النوع من الكلمات نادر وهو وليد المصادفة ، ولكنه قد يولد لنا المشترك اللفظي .

د — قد يتغير معنى الكلمة في لهجة من اللهجات ، ثم يمر زمن طويل

خلا له ينسب المعنى الأصلي ، وتلتزم تلك اللهجة استعمال هذه الكلمة في معناها الجديد دون سواه ، وهنا نرى لهجات اللغة الواحدة تستعمل كلمات متحدة الصورة في معان مختلفة . ويظهر أن هذه الظاهرة قد لعبت دوراً هاماً في اللهجات العربية إذ تغيرت معاني بعض الكلمات في بعض اللهجات دون البعض الآخر لظروف لغوية خاصة . فلما جمعت اللغة خيل لجامعيها أن إحدى القبائل تستعمل هذه الكلمة في معنى من هذه المعاني ، في حين أن قبيلة أخرى تستعملها في معنى آخر . والحقيقة أن معنى هذه الكلمة قد تغير في لهجة من اللهجات دون أن يطرأ عليه أي تغير في اللهجة الأخرى .

هـ - هناك كلمات كانت تستعمل في الأصل مختلفة الصورة والمعنى ، ثم تطورت صورة بعض منها حتى ماثلت البعض الآخر ، وهكذا رويت لنا متحدة الصورة مختلفة المعنى . فاشترك الصورة في مثل هذه الكلمات لم ينشأ عن اشتراكها في المعنى الأصلي ، وإنما نشأ عن تغير في أصوات بعضها ، ترتب عليه مماثلة في اللفظ ، واختلاف أصلي في المعنى .

ونحن حين نستعرض أمثلة المشترك اللفظي ، كما رويت لنا في المعاجم العربية ، ونحاول إرجاعها إلى العوامل المتقدمة ، نراها من الكثرة والاضطراب في روايتها ، بحيث تعي الباحث المدقق عن الحكم عليها حكماً قاطعاً . وكيف يمكن القطع فيها برأي مع مجهلنا بالحياة العربية قبل الإسلام . هذا إلى أن تلك الكلمات صرت في أحقاب بعيدة ، وفي ظروف اجتماعية مجهولة ، قبل أن تروى لنا على هذه الصورة التي نشهدنا في المعاجم . وكل الذي نستطيع تأكيده بصددنا ، أن معانيها قد تغيرت مع احتفاظها بصورتها ، أو أن صورتها قد تغيرت



مع الاحتفاظ بمعانيها . أما سبب التغير فأمر أقرب إلى الترجيح منه إلى مرتبة اليقين .

وليس هناك ما نستدل به على تغير المعاني في بعض الكلمات خير من تلك الأخطاء الإنشائية الشائعة بين تلاميذنا ، وفي بعض صحفنا حين تستعمل بعض الكلمات في معان لم ترد في المعاجم .

وكلنا يعلم أن مدرس اللغة العربية في صراع مستمر مع تلك المعاني الجديدة لكلمات قديمة ، ينكرها حيناً ويقبلها حيناً آخر ؛ دون أن يعلم الظروف التي أدت إلى مثل هذا التغير في المعنى . فقليل من التلاميذ من يستعملون كلمة مثل ( العتيد ) أو ( عيال ) في معناها الذي روته المعاجم . وقد اشتملت لغة كلامنا على كلمات كثيرة عربية الأصل ، احتفظت بصورتها فقط ، دون معناها الأصلي .

بقي أن نلقى نظرة سريعة في بطون المعاجم اللغوية لنلتقط منها بعض الأمثلة العربية التي توضح لنا اضطراب الرواية في معاني الكلمات ، وصعوبة الكشف عن العلاقة بينها :

١ — فالليث من معانيه : الأسد . وضرب من العنكبوت . واللسن البليغ ، فكيف عبرت هذه الكلمة عن كل هذه المعاني ، وما هي الظروف اللغوية التي ترتب عليها مثل هذا الاختلاف ؟؟

٢ — وما العلاقة بين المعاني التي رويت لكلمة الفخت : ضوء القمر ، تشل الطباخ القدرة من القدرة ، ثقب مستديرة في السقف ؟؟

٣ — وكيف عبر بكلمة ( البلد ) عن : مكة ، كل قطعة من الأرض مستحيرة عاصرة ، التراب ، القبر ، الدار ، الأثر ؟؟

٤ - وكيف التقت المعاني الآتية في كلمة النجم ؟

الكوكب ، نبات نجم على غير ساق ، الوقت المضروب والأصل الخ ١  
غير أننا نلاحظ العلاقة واضحة جلية بين معاني بعض الكلمات مثل :

١ - الجبل : ما علا من الأرض ، سيد القوم ، عالمهم .

٢ - التفاحتان : رؤوس الفخذين في الوركين .

٣ - العنبة : بثرة تخرج بالإنسان .

والذي نلاحظه بصفة عامة ، أن كثيراً من الكلمات التي تسمى بالمشارك اللفظي تجمع بين معنيين ، أحدهما حسي والآخر معنوي ، ولا شك أن المعنى الأصلي في مثل هذه الحالة هو الحسي ، وأن المعنوي فرع عنه بطريق المجاز .

وقد عني الزمخشري في معجمه أساس البلاغة بتبيان المعاني الحقيقية والمجازية للكلمات ، ولكنه لم يوفق في كل حالة ، فقد ضل الطريق حين

حاول اشتقاق معنى حسي ، من آخر معنوي ، مع أن الذي أجمع عليه

المحدثون من علماء اللغات ، هو أن المعاني الحسية أسبق في الوجود ، وأجدرياً أن

تعدّ المعاني الحقيقية ، وغيرها فروع لها عن طريق المجاز . وقد وقع في نفس

الزلل بعض الرواة المشهورين مثل : أبي عمرو بن العلاء حين روى قصة اشتقاق

الخيل من الخيلاء ، وقال لصاحبه مؤيداً هذا الزعم ألا تراه يمشي العرّاضنة ؟

وليت شعري كيف يمكن هذا مع أن الناس قد عرفوا الخيل قبل أن

يعرفوا الخيلاء ، فإذا صح أن هناك علاقة بين الخيل والخيلاء ، فالأولى أن

يقال إن الخيلاء من الخيل لا العكس .

ولا بأس هنا من أن نورد بعض الأمثلة التي وردت في أساس البلاغة ، لنؤيد ما نذهب إليه من أن المعاني الحسية ، أسبق في الوجود ، وأنها مصدر الاشتقاق لغيرها من الكلمات .

١ - الجبن من الجبانة . والجبان أي الصحراء .

٢ - جثم الطائر مشتق من الجثمان .

٣ - دبح بمعنى زين مشتق من الديباج .

٤ - جدثوه غيبوه في الجدث .

٥ - خيم الظلام من الخيمة .

ولهذا لا نتجني على اللغة حين نرجح أن معظم المعنويات التي لا ندرك لها مصدر اشتقاق ، والتي تبدو لأول وهلة حقيقية المعاني ، ليست في الحقيقة إلا مجازات منسية .

على أن البحث والتنقيب يوقفنا في معظم الأحيان على المعاني الحقيقية الأصلية لتلك المعنويات . فانظر مثلا :

١ - الرطانة وهي العجمة في النطق . قد اشتقت أصلا من معنى حسي هو : إذا كثرت الأبل وكانت رفاقا ومعها أهلها فتسمى الرطانة . والعلاقة بين المعنى الأصلي والمعنى الفرعي هي الجلبة مع الإبهام .

٢ - وكذلك البطلان التي منها الباطل ضد الحق جاءت من كلمة الباطل بمعنى ابليس . وقد ورد المعنى الأصلي في القرآن الكريم ( وما يبدىء الباطل وما يعيد ) .

٣ - الطمع في الأصل معناه رزق الجند

٤ - السفاهة في الأصل من سفهت الطعنة أسرع منها الدم وجف .  
ولكن حين يسائل المرء نفسه عن المعاني الأصلية للجوع والعطش والرعب  
والفرح ، لا يكاد يعثر على معان حسية تعدّ مصدر الاشتقاق لها . ولعلّ هذا  
لأن مثل تلك المعنويات قديمة بعيدة في القدم ، ولا سبيل إلى التوغل في تاريخ  
الإنسان لنعرف كيف عرف الجوع والعطش ، أو الخوف والفرح أول الأمر ،  
وكيف بدأ يشتق كلمات تعبر عنها ؟

وقد يكون من العبث أن نسرف هنا في ذكر أمثلة لما يسمى بالمشارك  
اللفظي ، لأن المعاجم العربية قد ملئت بها ، ومن اليسير الوصول إليها بمجرد  
الكشف في القواميس ، ومن اليسير أيضا إرجاع تلك الأمثلة التي يعثر عليها  
إلى عامل من العوامل الآتية الذكر .

غير أننا سنغنى هنا بالعامل الأخير من عوامل المشارك اللفظي ، لأن القدماء  
لم يشيروا إليه ، أو لم يفطنوا لإمكان حدوثه ، وهو أن بعض الكلمات لم تشترك  
في اللفظ إلا بعد تطور في أصوات بعضها ، وأن هذا الاشتراك في اللفظ لم يكن  
في الحقيقة إلا وليد المصادفة . فانظر مثلا إلى الكلمات الآتية :

١ - روت المعاجم أن [التغّب] لها معنيان غير ظاهري العلاقة ، وهما الوسخ  
والدرن ، والقحط والجوع . ثم في موضع آخر نجد أن «السغب» معناه الجوع  
ويظهر أن كلمة «السغب» قد تطورت في لهجة من اللهجات ، ولظرف  
من الظروف الخاصة ، حتى أصبحت [التغّب] من المشارك اللفظي . وقد يستأنس  
لهذا الرأي بما روى عن بعض قبائل اليمن من ميلها إلى قلب السين تاء ، فيقولون  
(النات) بدلا من [الناس] . فعمل كلمة (السغب) قد نطق بها في القبائل

اليمينية (التغب) ، مع احتفاظها بمعناها وهو الجوع ، ثم جاء جامعو المعاجم ونسبوا  
معنيين مختلفين لكلمة (التغب) ، وعدوها من المشترك اللفظي .

٢ - حربه حرباً سلبه ماله . حرب حرباً اشتد غضبه ، وعلى هذا فكلمة  
(الحرب) من المشترك اللفظي في رأى أصحاب القواميس ا

والحقيقة أن المعنى الأول لهذه الكلمة هو نفس معنى الفعل [ حرمه ] فلما  
قلبت الميم «باء» في لهجة من اللهجات العربية كلهجة مازن مثلاً ، التبس الفعل  
(حرمه) بمعنى سلبه ، بالفعل حرب بمعنى اشتد غضبه .

٣ - «قطب» زوى ما بين عينيه وكلح كقطب ، والشئ قطعاً !  
نفل نلحظ علاقة ما بين التقطيب في الوجه وقطع الشئ ؟ اللهم لا ا على أن  
أصحاب المعاجم قد عدوا هذا من المشترك اللفظي ، ولو أنهم رجعوا إلى الفعل  
(قطم) لرأوه بمعنى قطع ، ولما قلبت الميم منه إلى «باء» ، ظهر لهم فعل ظنوه  
جديداً وهو (قطب) بمعنى قطع ، ونسبوا له الاشتراك اللفظي .

٤ - جاء في مادة [سحب] أن لهذا الفعل معنيين هما :

(أ) جرّه على وجه الأرض

(ب) أكل وشرب أ كلا شديداً

فهل هناك علاقة ظاهرة بين المعنيين بحيث نقول إن أحدهما فرع عن الآخر؟  
تأليس الأصوب أن نبحث عن المعنى الثاني في مادة (زعب) التي فيها (تزعب)  
في أكله وشربه أكثر ، فلما همست الزاي والعين أصبحتا سينا وجاء ؟  
وهكذا للتبس لفظ الفعلين ، وحسب القدماء الفعل (سحب) من

المشترك اللفظي .

٥ — وقد خلطت المعاجم بين مادتي ( لزب ) و ( لسب ) فنسبت لكل منهما معنيين هما : اللصوق ولدغ العقرب أو الحية : فقد جاء في قاموس المحيط اللزوب : اللصوق . لزبته العقرب لدغته . لسب به لصق . لسبته الحية لدغته !! وكان الأولى أن ينسب أحد المعنيين إلى المادة الأولى ، والمعنى الثاني إلى المادة الأخرى . ولكن التطور الصوتي في إحدى المادتين وذلك بهمس الزاي لتصبح سينا ، أو بجهر السين لتصبح زايا ، قد أوقع القدماء في اللبس ، وجعلهم يخلطون بين معنيين بعيدى العلاقة .

٦ — أليس من الإسراف والمغالاة أن نجارى المعاجم العربية فنقول إن مادة ( نسب ) من المشترك اللفظي لأن من معانيها : نسبة ذكر نسبه ، وأنسبت الريح اشتدت ؟ في حين أننا نرى في موضع آخر [ أنسبت الريح اشتدت ] ؟ أليس الأقرب إلى الصواب أن نقول إن التطور الصوتي في الفعل ( أنسبت الريح ) ، قد أدى إلى قلب الشين سينا ، فالتبس الأمر على جامعى اللغة ؟

٧ — الخبث : المتسع من بطون الأرض ، والخبث الحثير هذا هو ما رواه صاحب قاموس المحيط . ولعمري كيف استباح لنفسه أن ينسب لهذه الكلمة شيئا من ظاهرة الاشتراك اللفظي مع وجود كلمة ( الخبيث ) بالتاء وشهرتها ، واحتمال قلب التاء إلى التاء مما أدى إلى اللبس بين المادتين .

٨ — المحت : الشديد ، اليوم الحار ، والخالص .

قد يعد بعض الناس مثل هذه الكلمة من المشترك اللفظي دون علاقة واضحة بين هذه المعاني ، في حين أننا نعلم أن كلمة ( البحت ) معناها الخالص ، وأن قلب

البناء منها إلى ميم ، قد أدى إلى نسبة معنى الخالص إلى ( البحت ) ، مع ما لها من معان أخرى .

٩ - فحث عنه كنع فخص ، والنحيت حية عظيمة لا تؤذى !  
فليت شعري ما العلاقة بين هاذين المعنيين حتى نجعلهما من مشتقات مادة واحدة ؟

أليس الأجدر أن نقول إن المعنى الأول متفرع عن الفعل ( بحث عنه ) ؟  
فلما قلبت الباء إلى الفاء ، وكلاهما من الأصوات الشفوية ، أدى هذا إلى اللبس بين المادتين ؟

تلك هي أمثلة قليلة ، أردنا أن نوردنا لتوضيح ما نعني من أن ظاهرة الاشتراك اللفظي ، قد تكون في بعض الأحيان نتيجة تطور صوتي في بعض الكلمات .

ولا شك أن الباحث في بطون المعاجم العربية سيكثر على مئات من أمثال تلك التي أوردناها هنا .

- ٤ -

## التضاد

لا يتم الحديث عن المشترك اللفظي إلا بالتعرض لتلك الكلمات التي رويت لنا مضادة المعاني ، والتي اصطلح القدماء على تسميتها بالأضداد . وأشهر من عنى بتلك الكلمات وجمعها بين مؤلفي العرب ، هو ابن الأنباري في كتاب له سماه الأضداد ، أحصى فيه ما ينيف على أربعائة كلمة ، ولكنه تعسف في اختياره ،

وتأول كثيراً من معاني الكلمات . أما ابن سيده والسيوطي فقد اعتدلا في اختيار الأضداد ، ولم يسرفا في تلمس العلاقة بين الكلمات ، فجاء ما أحصياه نحواً من مائة كلمة .

والضدية نوع من العلاقة بين المعاني ، بل ربما كانت أقرب إلى الذهن من أية علاقة أخرى . فمجرد ذكر معنى من المعاني ، يدعو ضد هذا المعنى إلى الذهن ، ولا سيما بين الألوان . فذكر البياض يستحضر في الذهن السواد . فعلاقة الضدية من أوضح الأشياء في تداعي المعاني . فإذا جاز أن تعبر الكلمة الواحدة عن معنيين بينهما علاقة ما ، فمن باب أولى جواز تعبيرها عن معنيين متضادين ، لأن استحضار أحدهما في الذهن يستتبع عادة استحضار الآخر . فالتضاد فرع من المشترك اللفظي ، وعوامل تكون المشترك اللفظي في اللغات وقد أشرنا إليها آنفاً ، هي عوامل تكون الأضداد . غير أنه من الممكن أن يضاف إليها ما يأتي :

### (١) التطهير :

إن غريزة التفاؤل والتشاؤم من غرائز الإنسان التي تسيطر على عاداته في التعبير إلى حد كبير . فإذا شاء المرء التعبير عن معنى سيء ، تشاءم من ذكر الكلمة الخاصة به ، وفر منها إلى غيرها . فجميع الكلمات التي تعبر عن الموت والأمراض ، والمصائب والكوارث ، يفر منها الإنسان ، ويكنى عنها بكلمات حسنة المعنى ، قريبة إلى الخير . وأوضح ما تكون هذه الغريزة بين النساء وفي الأوساط التي نالت حظاً ضئيلاً من الثقافة وأقرب المعاني إلى كلمات التشاؤم ،



هي أضدادها من كلمات التفاضل . لهذا عبّر في اللغة العربية عن الأسود بالأبيض  
تجنباً لذكر لفظ السواد ، وعبّر عن المكان المخوف بالمخاطر ، بالمفازة .  
ولا تختص بهذا قبيلة دون أخرى ، بل قد يجوز أن تعبر اللهجة الواحدة  
بلفظ واحد أساسه الخير ، عن الخير والشر . ويتوقف الأمر على قوة غريزة  
التطير بين أفراد القبيلة ، وما أصابوه من ثقافة .

### (ب) التبرك

ويلاحظ هذا بصفة خاصة بين الشباب ، فهم لرغبتهم في الخروج عن القواعد  
المألوفة في التعبير ، وحبهم للتجديد في الكلام ، وإظهار مهارتهم في تختيار الكلمات ،  
يلجأون أحياناً إلى التعبير عن الشيء بكلمة مضادة هازئين ساخرين . ويغلب  
أن يكون هذا النوع من التعبير بين الخاصة من الناس ، القادرين على التفنن  
في القول ، وهو على كل حال يؤدي آخر الأمر إلى وقوع كلمات متضادة المعنى .  
ويعزى إلى هذه الظاهرة ، وقوع كلمات متضادة مثل ( القشيب ) التي تعبر  
عن « الجديد » في غالب الأحيان ، وعن « الخلق » في القليل من الأحيان ،  
ومثل « جلل » التي تعبر عن الكبير والصغير ، ومثل يا « عاقل » التي قد تقال  
للمجنون ، وكلمة « سليم » التي قد تقال للملذوغ ، وكذلك « لمت » الشيء  
بمعنى كتبتة في لهجة عقيل ، وبمعنى محوته عند قبائل قيس .

### (ج) الأبرهام في المعنى الأصلي وعموم

قد يؤدي إلى التضاد أن المعنى الأصلي للكلمة يكون عاماً غير محدود ، ثم

يتحدد معناه مع الزمن ، ولكن في تطوره وتحدد معناه يتخذ ظريقتين متضادتين ،  
ويترتب على هذا أن نجد الكلمة الواحدة يتخصص معناها في لهجة من اللهجات  
بشكل خاص يضاد الشكل الذي اتخذته الكلمة في لهجة أخرى . وخير مثل  
لهذا قصة الملك الذي قال للأعرابي « ثب » يزيد اجلس ، فوثب الأعرابي  
ودق عنقه ، لأنه لم يكن يعرف معنى « لوثب » إلا طفر .

فالتضاد هنا بين معنى وثب في لهجة أهل الشمال ، ومعناها في لهجة حمير ،  
نشأ عن تحدد المعنى وتخصصه بشكل خاص في كل لهجة . والكلمة العبرية التي  
تفاخر الفعل ( وثب ) هي « يشب » ، وليس لها إلا معنى واحد ، وهو جلس  
أو أقام ، فعمل المعنى العام الذي كانت تدل عليه هذه الكلمة في اللغات السامية ،  
هو الانتقال من حال إلى حال ، وتغير الوضع .

وقد تخصص هذا المعنى العام في اللهجات الشمالية فأصبح يعبر عن القفز ،  
في حين أنه أصبح يعبر عن الجلوس في غيرها من اللهجات .  
ولعل كلمة « السدفة » التي روى أنها كانت تعبر عن الظلمة في لهجة تميم ،  
وعن الضوء بين قبائل قيس ، كانت شيئاً من هذا . فقد كان معناها العام ان تعبر  
عن حالة بين الظلمة والنور ، ثم تحدد معناها في تلك اللهجات فأدى إلى التضاد .  
هذا ولا ننسى أن للمصادفة دخلاً في تكون بعض الأضداد . فقد يترتب  
على التطور الصوتي في كلمة ما ، أن تصبح مماثلة في لفظها لكلمة أخرى مضادة  
في المعنى . فكلمة ( الجون ) التي تعبر عن الأبيض ، فقد انحدرت من أصلين  
لا علاقة بينهما ، إذ يظهر أن ( الجون ) التي تعبر عن السواد ، قد اشتقت  
ولا من الفعل ( جن ) بمعنى ستر ، والذي يستعمل في مثل ( جن الليل )

أى أظلم ، فهذه المادة تعبر أساساً عن معنى الظلمة ، ثم تطورت أصواتها بتأثير عامل المخالفة « Dissimilation » ، فقلب أحد النونين إلى صوت مشابه وهو الواو<sup>(١)</sup> .  
وبذلك التبس الجون المنحدر من مادة « جن » ، بالجون التي تعبر أصلاً عن النور .

وانظر أيضاً إلى كلمة ( أ ك ت ) التي روت المعاجم أنها تعبر عن معنيين متضادين هما : انطلق مسرعاً ، وقعد !

ويظهر أن تطور الفعل « قعد » في أصواته بأن انتقل مخرج القاف إلى الأمام قليلاً ، فصادف مخرج الكاف ، وبأن همست الدال فأصبحت تاء ، كل هذا أدى إلى أن صار الفعل ( قعد ) ( كمت ) ، دون تغير في معناه ، ثم التبس هذا الفعل بفعل آخر من أصل مختلف وهو ( أ ك ت ) بمعنى انطلق مسرعاً<sup>(٢)</sup> .

نكتفي بهذا القدر في الحديث عن الأضداد ، لأن ماروى عنها من الشواهد يعوز أكثره النصوص الصريحة القوية . وقد حلل بعض المحدثين أمثلة التضاد في اللغة العربية ، واستعرضها جميعاً ، ثم حذف منها ما يدل على التكلف والتعسف في اختيارها ، واتضح بعد بحث دقيق ، وعناية بمقارنة هذه الكلمات ومعانيها ، أن ليس بينها ما يفيد التضاد بمعناه العلمي إلا نحو عشرين كلمة في كل اللغة . ومثل هذا المقدار الضئيل من كلمات اللغة لا يستحق عناية أكثر من هذا ، ولا سيما وأن مصير كلمات التضاد إلى الاتقراض من اللغة ، بأن تشتهر بمعنى واحد من المعنيين مع مرور الزمن .

(١) انظر كتاب الأصوات اللغوية صفحة ١٧١ .  
(٢) انظر مقالا مسهباً عن الأضداد لسعادة الدكتور منصور فهمي بأشفا صفحة ٢٨٨ الجزء الثاني من مجلة المجمع اللغوي الملكي .

# الفصل السادس

## اللهجات الحديثة

تحدثنا في مقدمة هذا الكتاب عن أهمية اللهجات الحديثة ، في دراسة اللهجات القديمة . وسنعرض هنا طرفاً من خصائص اللهجات المصرية ، ولا سيما اللهجة النموذجية فيها ، وهي اللهجة القاهرية ، موضحين بعض ما احتفظت به هذه اللهجات الحديثة من صفات قديمة ، وما تطور فيها من صفات خاصة ، نمت واستقلت مع الزمن . وسنقتصر في هذه الإشارة العابرة على بعض التطورات الصوتية في هذه اللهجة ، وعلى تطور معاني بعض الكلمات . ولسنا نطمع من هذا الفصل إلا في أن نوضح ما يمكن أن تكشف عنه دراسة اللهجات الحديثة ، فعمل في مراحل تطورها ما يلقى ضوءاً على ما غمض من تطورات اللهجات القديمة وخصائصها .

- ١ -

## الناحية الصوتية

(١) فقدت معظم اللهجات المصرية بعض الأصوات العربية القديمة ، أمثال : الشاء ، والذال ، والظاء ، والقاف . واستبدلت بها على الترتيب ، التاء ،

والدال ، والضاد ، والهمزة ، أو الجيم . وقد اطردها هذا اطراداً يدعو إلى الدهشة في كل الكلمات . والذي يلحظ في هذا التغير بصفة عامة ، هو الانتقال ببعض الأصوات الرخوة القليلة الشيوع في اللغة الفصيحة ، إلى نظائرها من أصوات الشدة .

( ب ) مالت الأصوات المطبقة إلى الاستفال في لغة الكلام المصرية في معظم الأحيان ، إذ نلاحظ أن المصريين بصفة عامة ، ينطقون الصاد سيناً ، والطاء تاء ، والضاد دالا ، والظاء زاياً ، وهكذا مثل :

صقع : « سقع فلاناً قلماً » . ( غضر عنه ) : « غدر على البيعة » أى انصرف . « لدعه قلماً » جاءت من اللطح . مدغ : مضغ .

والذي نستطيع أن نؤكد به صدق هاتين الظاهرتين ، أنهما من التطورات الحديثة التي تمت بعد انتشار اللغة العربية في بيئات مختلفة نائية ؛ بل ربما تم بعضها في العصور الإسلامية الأولى .

لهذا نترك البحث في علة هذا التطور لدراسة أوفى في اللهجة المصرية ونكتفي هنا باستعراض تلك التطورات التي تمت في عصور أحدث ، والتي كونت صفات خاصة باللهجة المصرية ، تميزها عن غيرها من اللهجات الحديثة ، وتلك هي الصفات التي تكونت بعد مرور أجيال كثيرة على اللغة العربية في البيئة المصرية ؛ وحين أصبح للبيئة المصرية كيان مستقل . فقد جاء زمن على لهجة الكلام بمصر ، تركت فيه دون نظر فيها أو عناية بها ، يتحدث بها الناس في حديثهم العادي ، وفي خطابهم العام ، دون تدوين لها أو تسجيل لما يعرض لها من تغير أو تطور . وقد صرفت اللغة الفصحى أنظار الناس عن لغة كلامهم ، فلم يعينوا

بما عرض لها من تطور مع الزمن ، ولهذا اتخذت في الأفواه أشكالا وصوراً  
تباينت باختلاف الأجيال والعصور ، والناس لا يشعرون ولا يلحظون تلك الفروق ،  
وإنما وجهوا كل عنايتهم إلى الكتابة ، وهي اللغة الفصحى ، فإذا انحرف  
الطفل في الكلام بلهجة أبيه ، لم يجد من يعنى بتصحيح هذا الانحراف ،  
والإبقاء على صورة خاصة في الكلام . فأخذت اللهجة مجراها الطبيعي ،  
وتغيرت جيلا بعد جيل ، وقد أدى كل هذا إلى ما نلاحظه من فروق خطيرة بين  
لهجة الكلام واللغة الفصحى . واتسع لهذا ، البون بين لهجة الحديث وبين لغة  
الكتابة ، مما لا نظير له في أية لغة من لغات العالم . فلم تجد اللهجة المصرية رقيباً  
عليها أو حسيباً ، فانسابت خفية عن الأنظار تتغير في أفواه الناس ، دون أن  
يلفت هذا نظر أحد ، وقد ساعد هذا التطور الخطير أنها لم تكتب ولم تسجل ،  
لأن الكتابة في بعض الأحيان من عوامل استقرار اللغات ، ومنعها من أن تقع  
نهباً لعوامل التطور اللغوي ، تفعل بها ما تشاء ، وهذا هو السرفيما نلاحظه من  
أن التغييرات في اللهجة المصرية ، يمكن أن تعزى في غالب الأحيان إلى أخطاء  
كلامية بين الناشئين ، تركت دون إصلاح ، أولفت نظر ، فتراكت وبعدت عن  
الأصل ، بحيث أصبح من العسير إرجاعها إلى ذلك الأصل إلا بجهد ومشقة .  
فنحن الآن ننكر كثيراً من كلمات اللهجة المصرية ، غير مدركين أن لها أصلاً  
عربياً صحيحاً ، وأنها تطورت في الأفواه دون عناية بإصلاحها من بادية الأمر .  
إذا توجهت كل العناية إلى لغة الكتابة ، وكان المشتغلون بها قليلين جداً ، وترك  
الكثرة الغالبة من الناس يتخبطون في حديثهم ، فننتقل الكلمات من صورة  
إلى أخرى دون أن تستقر على حال ، كل ينطق كما يهوى ، ويقيس ما لم يعرف

على ما عرف ، وتتوارث الأجيال أخطاء من سبقوهم .  
فانظر مثلاً إلى كلمة مثل « ألتغ » التي تطورت فيها التاء أولاً إلى تاء كعظم  
التاءات وصارت ( ألتغ ) في عصر من العصور ، وأخيراً جهر بهذه التاء فأصبحت  
دالا ، وصارت الكلمة على الصورة التي نألفها الآن وهي ( ألدغ ) .  
نشير بعد هذا إلى أم الاتجاهات الصوتية في لهجة الكلام المصري ،  
فلنخصها في العناصر الآتية :

١ - الميل إلى همس كثير من الأصوات ، وهو أمر طبيعي في بيئة مستقرة  
كالبيئة المصرية ذات الحضارة منذ القدم (١) .

فانظر مثلاً إلى كلمة مثل ( اتكرع ) ، التي لا نشك في أنها انحدرت من  
( تجرع ) ، بعد أن همست الجيم فأصبحت كافاً . ومثل « دهس » التي أصلها  
من « الدعس » وهو شدة الوطاء . ومثل ( شجت ) التي أصلها من « شجد » ،  
فمرت في مرحلتين قبل أن تصل إلى الصورة التي نعهد لها — إذ قلبت أولاً الذال  
ككل الذالات إلى دال ، وأتى عليها عهد في لهجة الكلام كانت « شجد » ثم  
همست الدال فأصبحت ( تاء ) . ومثل ( نكش ) التي ترجع أنها من ( نجش )  
الصيد أو كل شيء مخبوء بمعنى استشاره . وهكذا نجد كلمات كثيرة قد همست  
بعض أصواتها في لهجة الكلام . على أننا في القليل من الأحيان نلاحظ في اللهجة  
المصرية عكس هذه الظاهرة مثل ( اتعتع ) التي هي من ( التعتعة ) بمعنى الحركة .  
ومثل ( غنير ) التي هي في الأصل ( خنير ) وهكذا ففي هذه الكلمات نجد اللهجة  
المصرية قد جهرت في بعض الأصوات المهموسة في الكلمات العربية الفصيحة .

ويظهر أن هذا النوع من التطور قد جاء إلى اللهجة المصرية مع بعض النازحين إليها من البدو الذين يميلون إلى جهر الأصوات ، أو أت بعض الطبقات من الناس في مصر كانوا أميل إلى صفات البداوة وإلى البعد عن الحضارة كأوساط حوام المدن ورعاها .

٢ — أخطاء تبدأ مع الأطفال والناشئين ، ثم تنمو بينهم وتكون جزءاً من لهجاتهم وهم كبار ، ثم يورثونها من بعدهم . وربما كان هذا العنصر أوضح العناصر في تطور الكلمات وأصواتها في اللهجة المصرية (١) :

(١) فهناك كلمات قلبت فيها الباء ميماً مثل (تبحتر) ، أصبحت في لهجة الكلام (تمختر) ، وهناك العكس من هذا مثل (متاع) صارت تلك الكلمة الشائعة (بتاع) ، ومثل (حماق) صارت (بحلق) مع تغيير في ترتيب الأصوات ، ومثل (خمش) التي جاءت منها (خربش) بعد زيادة الراء .

وهناك كلمات قلبت فيها (الفاء) إلى (باء) في لهجة الكلام ، مثل (سفظ) التي صارت (سببت) ، ومثل (قف شعره) نقولها الآن في الكلام (قب شعره) ، ومثل (فرطش) التي تستعمل في الفصحى بمعنى (فرطش الجمل) أي تفجع للبول ، صارت في لهجة الكلام « برطش » .

(ب) من بين الأخطاء التي قد تعرض للناشئين ، تغير في ترتيب أصوات الكلمات ، وهو ما وقع بين العربية الفصحى ولهجة الكلام المصرية مثل :

بحلق : حلق . « بعزاً » : جاءت من تزعبق الشيء من يدي تبذر وتفرق . « الزعل » : جاءت من الفلز بمعنى الضجر . ومثل « فقص » : التي

(١) أنظر كتاب الأصوات الفوية صفحة ١٤٥ .